الإنساني 69

جولة في الذاكرة
لصوت و رائحة حلب

ذاكرتنا الإنسانية والحرب
(الملف)

تصدر دوريًا عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر
ICRC
غير مخصصة للبيع
العدد التاسع والستون
خريف/شتاء 2021

◆ لاجئون.. مخذولون! ◆

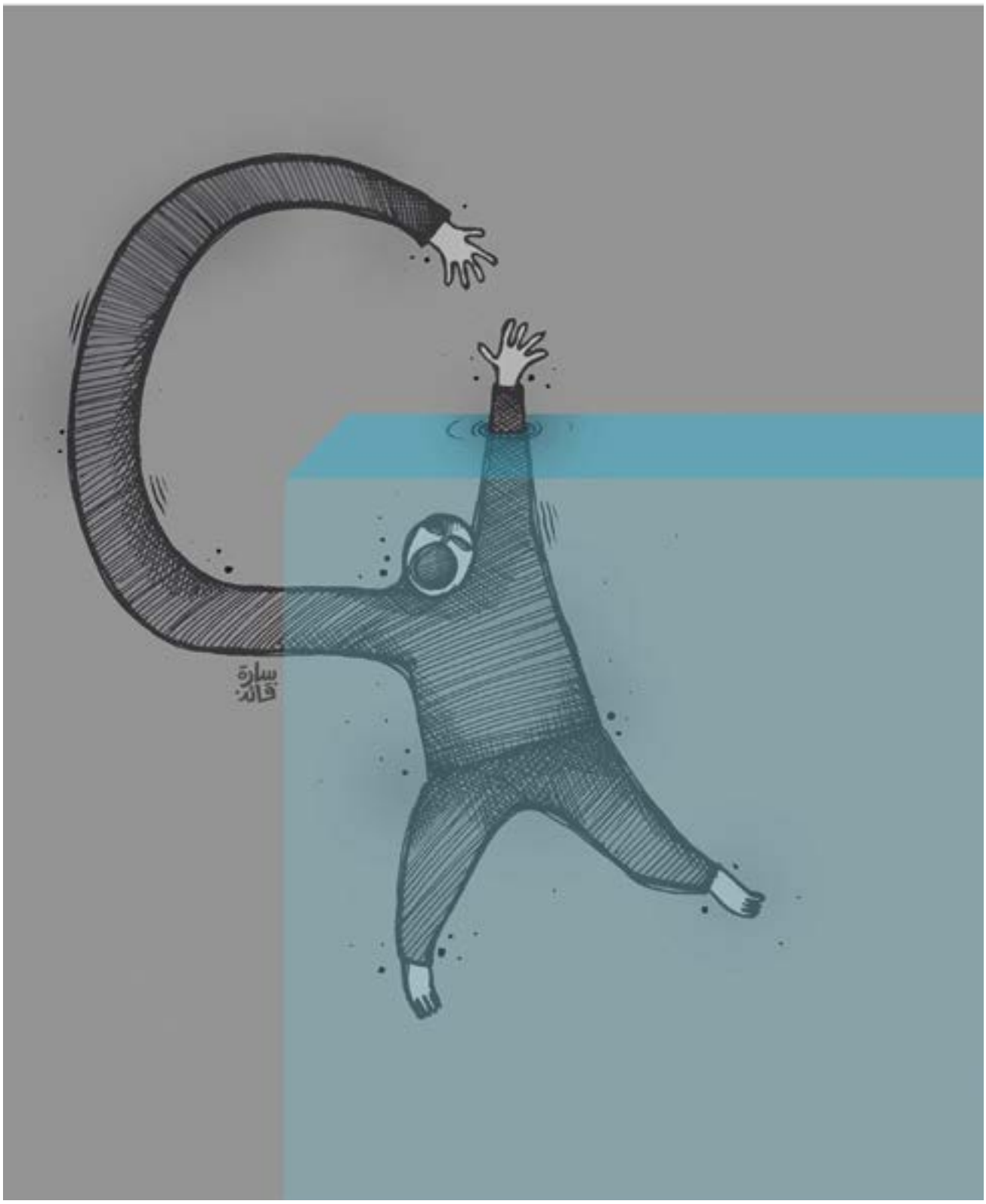

الرسم: **سارة قائد**، البحرين، [1990 –]

ذاكرة للحرب وأخرى للإنسانية

ما من حرب إلا وكانت وراءها ذاكرة تغذيها وتؤججها أحيانًا، أو تتكون بنتيجتها. تقول لنا هذه الذاكرة إن حربًا ما اندلعت للدفاع عن الهوية، وأخرى نشبت انتقامًا لما حدث في الماضي، وثالثة تُشن دفاعًا عن المستقبل، إلخ. وبناء عليها يتقاتل البشر فتتكون في عقلهم الجمعي ذكريات جديدة تؤسس لما سيأتي بعدها من نزاعات أو على العكس، سلام.

ونقيض ذاكرة الحرب هنا ليس النسيان. وإنما شكل آخر منها قليلًا ما يتنبه إليه وهو: ذاكرة العمل الإنساني؛ أو ما فعله الأفراد والجماعات لتخفيف وطأة النزاع وقسوته على أولئك الذين لم يشاركوا فيه. وهي ذاكرة حتمية يؤسس لها العمل الإنساني وتشكل العماد الذي قام ويقوم عليه هذا العمل الإنساني المعاصر.

قبل أكثر من قرن ونصف قرن، وعندما دوَّن رائد العمل الإنساني الحديث هنري دونان (1828–1910) كتابه المعنون «تذكار سولفرينو» فإنه كان يشارك ذكرياته المؤثرة التي ظلَّت تلاحقه طوال ثلاث سنوات بعد معركة «سولفرينو» حينما رمت به الأقدار إليها ليشهد قسوة الحرب وبشاعتها. كانت المعاناة التي حملتها ذاكرة دونان هي إشارة الانطلاق لتكوين جمعيات الإغاثة المنتشرة في كل بقاع الأرض الآن للتخفيف من معاناة البشر ومد يد العون إليهم في الشدة والخطر، ومنها أيضًا وُضِعَ حجر الأساس للقانون الدولي الإنساني.

في هذا العدد من مجلة «الإنساني»، نتطرق إلى المعاني المختلفة للذاكرة الإنسانية في علاقتها بالحرب. نبدأها بإطلالة على إحدى أبرز معارك الذاكرة المتمثلة في نضال الشعب الجزائري لنيل حريته خلال حرب التحرير. لدى الجزائريين ذاكرة حيَّة، لكنها ليست ذاكرة في خط واحد، فهي ذاكرة متشعبة شهدت أبعادًا إنسانية مختلفة على حد تحليل الروائية فضيلة ملهاق في مقالها. وفي السودان، يرسم لنا الروائي أمير تاج السر صورة قاتمة لذاكرة بلد تحول مع الوقت إلى «محربة» بسبب وقوعه مرتعًا للنزاعات، الكبيرة والصغيرة على حدٍّ سواء. وفي الملف نقرأ أيضًا شهادات تحملها ذاكرة العاملين في المجال الإنساني كالمستشار عمر مكي الذي يأخذنا في رحلة تمزج بين الشخصي والقانوني والمعنى الكبير لشعار مثل «حتى الحرب لها حدود».

يشمل الملف أيضًا إطلالة على ذاكرة المكان التي وقفت صامدة أمام الدمار الذي خلفه النزاع المسلح، على ما تفعله الجولة التي تصحبنا فيها علا العجيلي في الأحياء القديمة لمدينة حلب.

بعيدًا عن ملف العدد الخاص بالذاكرة، أفردنا مساحة لمساهمات عدة تناقش قضايا تغير المناخ سواء من خلال مخرجات مؤتمرات القمة التي تعقدها الأمم المتحدة، أو من خلال دور وسائل الإعلام الاجتماعي في دفع النقاش نحو هذه القضية إلى الأمام.

وكعادتنا في كل عدد، نناقش مواد تتعلق بالعلاقة بين قضايا القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية. فنقرأ للدكتور أحمد الداودي وسارة غيل مقاربة حول الطابع المدني للبيئة الطبيعية بموجب القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية، وأوجه التشابه بينهما ومدى التوافق وأهمية الاستعانة بالموروث القانوني والتشريعي المتنوع من أجل تعزيز حماية البيئة أثناء النزاع المسلح. وفي العدد نقرأ حوارًا مع أحد الأصوات المفكرة المهمة وهو المفكر المغربي إدريس الفاسي الفهري وفيه يشرح بعضًا من آرائه المهمة حول الحرب والسلام، والقانون الدولي والإسلام، ومعاملة الأسرى في الإسلام.

«الإنساني»

الإنساني

تصدر دوريًّا عن
اللجنة الدولية للصليب الأحمر

رئيس التحرير **زينب غصن**

مدير التحرير **أحمد زكي عثمان**

المراسلات : 84 شارع 104 حدائق المعادي، القاهرة 11431، مصر
هاتف : 41/25281540–202+ فاكس : 25281566–202+
البريد الإلكتروني: alinsani@icrc.org
الموقع الإلكتروني: http://blogs.icrc.org/alinsani/

الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها

الإشراف الفني **أحمد اللباد**

اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمة مستقلة محايدة، أنشئت عام 1863. مهمتها إنسانية بحتة، تتمثل في حماية أرواح ضحايا الحرب وكرامتهم وتقديم المساعدة لهم. تقوم اللجنة بتوجيه وتنسيق أنشطة الإغاثة التي تنفذها الحركة الدولية للصليب والهلال الأحمر. وتعمل على ترويج وتدعيم القانون والمبادئ الإنسانية العالمية.

AFP

أقارب المفقودين اللبنانيين يرفعون صور ذويهم في أحد الفعاليات في العاصمة بيروت.
(تصوير: جوزيف عيد/ أ. ف. ب)

69

خريف/شتاء 2021

الكارثة ما تزال ماثلة: تفاؤل حذر بنتائج قمة غلاسكو للمناخ 04

الإعلام الاجتماعي وأزمة المناخ: زخم مؤقت أم محفز حقيقي للتغيير
محمد علام 08

حماية البيئة في النزاعات المسلحة: القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية
أحمد الداودي وسارة غيل 10

المفكر المغربي إدريس الفاسي الفهري: المعاملة بالمثل في الإسلام لا تمتد للتعذيب والتمثيل بالجثث
حاوره: أحمد زكي عثمان 13

الملف: ذاكرتنا الإنسانية والحرب 17

الجزائر وفرنسا: عندما تضع الحرب أوزارها تُعلن الذاكرة نضالها
فضيلة ملهاق 19

محطات مضيئة للعمل الإنساني في حرب تحرير الجزائر
ليندة بوعلي 22

النزاع غائر في ذاكرة السودان
أمير تاج السر 24

مقيمون في الذاكرة: عن المفقودين في الشرق الأوسط
بسنت عبد المجيد 26

عندما يصبح الشعور بالآخرين سابقًا على الشعور بالذات
رباب سمير 28

ذاكرة لصون الكرامة الإنسانية: حدود للحرب وحدود للقانون
عمر مكي 30

عدنان حزام: حادثة مقتل زملائي ما زالت تؤرقني 34

من ذاكرة متطوع: تناقضات الحياة على جبهة الحرب في سورية
رمّاح زوان 36

صباح فخري يستقبلكم: جولة في الذاكرة لصوت ورائحة حلب
علا العجيلي 40

تمثيلات الحرب: الذاكرة والتخييل في الرواية العربية الحديثة
إيهاب الملاح 43

الذاكرة الفنية من تمجيد المنتصر إلى رصد المعاناة
دينا أبو الفتوح 46

ريشة فنانة عراقية شابة توثق مصاعب النزوح
أفين ياسين 51

بلا رتوش: تخيل أننا هاجرنا إلى عالم لا يعرف الشمس
ندى ثاقب 52

عرض كتاب: الكتاب الذي يحكي عني
فاتن خليل 54

أركان العالم 55

إصدارات 58

قطعة نسجية من سجاد قرية «الحرّانية» المصرية الشهيرة

الكارثة المناخية ما تزال ماثلة:

تفاؤل حذر بنتائج ميثاق غلاسكو للمناخ

AFP

ما زال العالم مُتَّجهًا نحو كارثة مناخية كما يقول خبراء، على الرغم من نجاح خجول خرجت به قمة المناخ (كوب 26) التي عُقدت في غلاسكو بإسكتلندا، لا سيما فيما يخص النص صراحة على تخفيض استخدام الفحم مصدرًا للطاقة، وكذلك فتح المجال أمام دعم الدول الأضعف في مكافحة تغير المناخ

كان واضحًا غياب التوافق الدولي في «مؤتمر الأطراف في نسخته السادسة والعشرين» الذي عُقد في غلاسكو في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي. إذ إن المؤتمر عُد حدثًا مفصليًّا لإبقاء "اتفاقية باريس حول المناخ" قابلة للتطبيق على المدى الطويل، لكنه لم ينجح في خلق أرضية مناسبة للعمل أكثر من أجل مكافحة التغير المناخي الذي صار يهدد البشرية أكثر من أي وقت مضى.

الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة **أنطونيو غوتيريش** لخص النتائج قائلًا: «كوكبنا الهش، يقف على المحك، ولا زلنا نقف على أعتاب كارثة مناخية».

وخرجت للعلن النسخة النهائية من وثيقة الاتفاق، التي أُطلق عليها اسم «ميثاق غلاسكو للمناخ»، بعد مفاوضات ماراثونية صعبة استمرت أسبوعين بين مندوبي 200 دولة. وحوت الاتفاقية نصوصًا ملزمة لتقليل معدلات الانبعاثات حتى العام المقبل، ليتماشى مع إبقاء معدل زيادة درجة الحرارة أقل من 1.5 درجة مئوية. كما أن الوثيقة نصت صراحة لأول مرة على تقليل استخدام الفحم الذي يتسبب في زيادة الانبعاثات الغازية في الغلاف الجوي. وأخيرًا طرح الاتفاق فكرة تدشين حوار حول تمويل الدول النامية الأكثر عرضة لآثار التغيرات المناخية.

وبهذا فإن «ميثاق غلاسكو للمناخ» يحوي قواعد أفضل للتعامل مع ظاهرة التغير المناخي. إلا أنه أبقى على مقترحات مثيرة للجدل، قادتها دول كالصين والهند، وهما من أكبر الدول المسببة للانبعاثات في العالم. وشمل ذلك صياغة بشأن تقليل استخدام الفحم والوقود الأحفوري اللذين يتسببان في زيادة الانبعاثات الغازية في الغلاف الجوي، على الرغم من الدعوات المتزايدة للتخلي نهائيًّا عن استخدام الفحم.

ورد وزير الطاقة الهندي **بوبانداراداف** على هذا المطلب بالتساؤل عن الطريقة التي يمكن للدول النامية أن تتوقف فيها عن استخدام الفحم، كمصدر للطاقة الرخيصة، في الوقت الذي «**تعاني فيه هذه الدول من تبعات التعامل مع متطلبات التنمية، والتخلص من الفقر**».

كما أخفق الميثاق في إيجاد آلية لتمويل ودعم الدول المعرَّضة لخطر الجفاف والفيضانات •••

AFP

الناس الذين يعيشون في مناطق النزاع هم من بين الفئات الأكثر ضعفًا إزاء أزمة تغير المناخ والأكثر تجاهلًا من العمل المناخي

والعواصف جرَّاء ارتفاع منسوب مياه البحار.

لقد عبر الاتفاق عن «**أسف عميق**» بسبب فشل الدول الغنية في جمع مبلغ سنوي منفصل قدره 100 مليار دولار وعدت به منذ أكثر من عقد لتمويل الجهود الخاصة بمكافحة تغير المناخ. وحض الميثاق الدول على دفع المبلغ «**بشكل عاجل وحتَّى عام 2025**».

أقرت اتفاقية "كوب 26" للمناخ بأن الالتزامات التي تعهدت بها الدول حتى الآن لخفض انبعاثات غازات الاحتباس الحراري المسببة لارتفاع درجة حرارة الأرض ليست كافية لمنع تجاوز ارتفاع درجة حرارة الكوكب 1.5 درجة بالمقارنة بدرجات حرارة ما قبل الثورة الصناعية.

وفي محاولة لحل هذه المشكلة، طلب الاتفاق الجديد من الدول ومن الحكومات تعزيز تلك الأهداف بحلول نهاية العام المقبل بدلًا من فترة الخمس سنوات التي كان منصوصًا عليها في السابق. إذ إنه، بموجب اتفاقية باريس لعام 2015، تعيَّن على الدول الأطراف في الاتفاقية أن تقدم خططًا جديدة لخفض الانبعاثات كل خمس سنوات، كل منها أكثر طموحًا من السابقة.

ومن المقرر أن تستضيف مصر القمة المقبلة في 2022، فيما تستضيف الإمارات قمة العالم 2023.

الجوية في افتتاح مؤتمر "كوب 26"، أن السنوات (2015–2021) هي على الأرجح أكثر الأعوام حرارة تسجل حتى الآن، وأن المناخ العالمي «دخل في المجهول».

ويقدر خبراء أميركيون أن مظاهر التغير المناخي، من أعاصير وحرائق الغابات، كلَّفت الولايات المتحدة خسائر قياسية بلغت 100 مليار دولار في عام 2020.

وفي أيلول/ سبتمبر من العام 2020، أجلت السلطات نصف مليون شخص في ولاية أوريجون الأميركية نتيجة حرائق الغابات الضخمة التي تؤججها الرياح والتي اجتاحت ولايات الساحل الغربي للولايات المتحدة

العالم رهين تغير المناخ

من المكسيك إلى الولايات المتحدة شمالًا، ومن ألمانيا إلى الصين مرورًا بأفغانستان، ومن الجزائر مرورًا بمصر حتى دول إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى، يكافح العالم من أجل مواجهة مظاهر متفاقمة للتغيُّر المناخي وتطرف الطقس كارتفاع درجة حرارة الأرض، وتزايد معدلات الجفاف، وتصاعد الفيضانات المدمرة والأعاصير القوية التي أضرت الأنظمة البيئية وأثرت سلبًا على سبل الحياة لعشرات الملايين من السكان حول العالم. وتهدد هذه المظاهر بمحو مدن وجزر بأكملها.

ويشير الطقس إلى حالة الغلاف الجوي في فترة قصيرة كيوم حتى أسبوع، أما المناخ فهي حالته لفترة زمنية طويلة، يمكن أن تصل إلى عقود أو لمدد أطول.

وكشفت المنظمة العالمية للأرصاد

REUTERS

ما المقصود بتغير المناخ؟

يقصد بتغير المناخ التحولات طويلة الأجل في درجات الحرارة وأنماط الطقس. قد تكون هذه التحولات طبيعية فتحدث، على سبيل المثال، من خلال التغيرات في الدورة الشمسية.

ولكن، منذ القرن التاسع عشر، أصبحت الأنشطة البشرية المسبب الرئيس لتغير المناخ، ويرجع ذلك أساسًا إلى حرق الوقود الأحفوري، مثل الفحم والنفط والغاز.

ينتج عن حرق الوقود الأحفوري انبعاثات غازات الدفيئة التي تعمل مثل غطاء يلتف حول الكرة الأرضية، مما يؤدي إلى حبس حرارة الشمس ورفع درجات الحرارة.

تشمل أمثلة انبعاثات غازات الدفيئة التي تسبب تغير المناخ ثاني أكسيد الكربون والميثان. تنتج هذه الغازات، على سبيل المثال، عن استخدام البنزين لقيادة السيارات أو الفحم لتدفئة المباني.

يمكن أيضًا أن يؤدي تطهير الأراضي من الأعشاب والشجيرات وقطع الغابات إلى إطلاق ثاني أكسيد الكربون.

مدافن القمامة تعتبر مصدرًا رئيسيًّا لانبعاثات غاز الميثان.

ويُعد إنتاج واستهلاك الطاقة والصناعة والنقل والمباني والزراعة واستخدام الأراضي من بين مصادر الانبعاث الرئيسية ■

– المصدر: الأمم المتحدة

ودمرت آلاف المنازل كما أودت بحياة نحو ثلاثين شخصًا.

وفي الصين التي تواجه العواصف الاستوائية التي تتسبب بأمطار عاتية، واجه إقليما سيتشوان، جنوب غربي البلاد، وقانسو، في الشمال الغربي، خطرًا محدقًا بسبب موجة الأمطار الغزيرة التي تضرر بفعلها أكثر من 45 مليون شخص منذ بدء موسم السيول والفيضانات في حزيران/ يونيو.

وفي القارة الأوروبية، شهدت ألمانيا في الصيف فيضانات غير مسبوقة، ما أدى إلى مئات القتلى والجرحى، كما تأثرت البنى التحتية لعدة مناطق ودمرت أجزاء منها. وفي حوض البحر المتوسط، عانت تركيا واليونان والجزائر ولبنان من حرائق الغابات التي كافحت السلطات لأسابيع لكبح جماحها.

في ظل النزاعات

ومما يزيد الطين بلة هو آثار التغير المناخي في دول النزاعات المسلحة لأن النزاع يضعف قدرتها على التكيف معه.

ويبحث مؤشر التكيف العالمي لجامعة نوتردام في مدى تأثر البلدان بتغير المناخ والتحديات العالمية الأخرى، مقابل قدرتها على تحسين صمودها أمامهم. تحتل اليمن ومالي وأفغانستان وجمهورية الكونغو الديمقراطية والصومال، وجميعها تشهد نزاعات، ترتيبات من بين الأدنى.

وبالتالي، فإن الناس الذين يعيشون في مناطق النزاع هم من بين الفئات الأكثر ضعفًا إزاء أزمة تغير المناخ والأكثر تجاهلًا من العمل المناخي. ويتفق العلماء بشكل عام على أن تغير المناخ لا يتسبب في نشوب نزاع مسلح بشكلٍ مباشر، ولكنه قد يزيد بشكل غير مباشر من خطر اندلاع النزاع من خلال مفاقمة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والبيئية القائمة.

على سبيل المثال، عندما يُدفع رعاة الماشية والمزارعون لتقاسم الموارد المتناقصة بسبب تغير المناخ، يمكن أن يثير ذلك توترات في الأماكن التي تفتقر إلى الحوكمة القوية والمؤسسات الشاملة.

ويقيس تقرير صادر عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر بعنوان «عندما تمطر غبارًا»، مدى تضرر البلدان التي تعاني ويلات النزاع المسلح من تغير المناخ وتقلبه أكثر من غيرها.

ويذكر التقرير أن انعدام الأمن يحد من قدرة الناس على مواجهة الصدمات المناخية. فمثلًا عانت منطقة غرب أفريقيا من الجفاف لفترة طويلة في السبعينيات، ما أدى إلى مجاعة. في أوائل عام 2019، أصبحت المراعي شحيحة في جنوب غاو، بسبب الفيضانات. انتاب الرعاة القلق من السفر مع ماشيتهم خوفًا من تعرضهم لهجوم من جماعات مسلحة أو قطاع طرق.

وبدلًا من ذلك، كانوا يتجمعون في أغلب الأحيان في مناطق قريبة من مصادر المياه، ما أثار توترات مع المزارعين والصيادين. ونظرًا لأن ماشيتهم صارت هزيلة، اضطر الرعاة إلى بيعها بِثَمَنٍ بَخْسٍ. كما حال انعدام الأمن دون وصولهم إلى أسواق الماشية في أماكن أبعد، إذ كانوا يأملون في الحصول على أسعار أفضل.

التحديات بالأرقام

ذكر تقرير «فجوة الانبعاثات 2021: درجة حرارة الأرض ما زالت ترتفع»، الذي صدر قبيل انعقاد قمة غلاسكو، أن التعهُّدات التي قطعتها دول العالم على نفسها غير كافية للحد من الأخطار الجسيمة للتغير المناخي.

وعلى الرغم من التعهدات المناخية الوطنية، فإن درجة الحرارة العالمية قد ترتفع بمقدار 2.7 درجة مئوية بحلول نهاية القرن، حسب التقرير. وهذا الرقم أعلى بكثير من الهدف الذي تعهد به اتفاق باريس للمناخ في العام 2015 بإبقاء معدَّل ارتفاع درجة حرارة الكوكب عند 1.5 درجة مئوية. ويحتاج العالم إلى خفض انبعاثات غازات الاحتباس الحراري إلى النصف في السنوات الثماني المقبلة من أجل الحفاظ على الاحتباس الحراري دون 1.5 درجة مئوية.

ووصف التقرير تعهدات الدول لخفض التلوث الكربوني بأنها «وعود ضعيفة لم تنفَّذ بعد».

وسيكون للتقاعس عن اتخاذ إجراءات جادة لخفض الانبعاثات عواقب وخيمة. ويقول علماء إن تجاوز ارتفاع الحرارة 1.5 درجة مئوية من شأنه أن يؤدي إلى ارتفاع كبير في مستوى سطح البحر وكوارث من بينها شدة الجفاف والعواصف العاتية وحرائق الغابات بمستويات أسوأ بكثير من تلك التي يشهدها العالم حاليًّا ■

محمد علام*

لم تشغل قضية التغير المناخي حيزًا من تفكيري إلا حينما بدأ تحول الخطاب الجمعي حولها من أرقام وتنبؤات إلى قصص إنسانية تمس حياة أفراد بعينهم، لا سيما في المناطق الأقل نموًّا.

زخم مؤقت أم محفز حقيقي لتغيير السلوك؟

الإعلام الاجتماعي وأزمة المناخ

في العام 2017، كنت في المرحلة الأخيرة من دراستي لعلوم الاتصال والإعلام، وقد كان همي الأكبر حينها العثور على موضوع لرسالتي البحثية والتي ستشغل عامًا كاملًا من حياتي. لذا، كان ضروريًّا أن أختار قضية بحثية أهتم بها شخصيًّا، وحبذا لو كانت تتداخل مع منظومة قيمي.

وفي وقت طال فيه التفكير والاستشارات والقراءة والقلق أيضًا، قرأت منشورًا على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك جعلني متعطشًا للمزيد من المعلومات حوله. حينها، بدأ اهتمامي بظاهرة التغير المناخي حيث قررت أن تكون محور بحثي، ولاحقًا محور بعض من أنشطتي التطوعية والكتابية أيضًا.

كان المنشور يفند كيف ستتأثر، بل ربما تغرق بالكامل، بعض المدن الساحلية نتيجة ارتفاع منسوب البحار في حال لم تنخفض معدلات انبعاثات الكربون الحالية. تنبهت حينها إلى أن الأثر قد يمتد لفرع عزيز من عائلتي يعيش في مدينتي المفضلة: الإسكندرية. فقد صُنفت المدينة الساحلية الأكبر في مصر بأنها من المدن المهددة بالغرق بسبب الارتفاع المستمر في منسوب مياه البحر، حسب عدة تقارير أممية ودراسات أكاديمية.

لم أفكر كثيرًا حينها كيف أن قراءة منشور واحد في موقع فيسبوك على صفحة آخر الأخبار «newsfeed» الخاصة بي قد شكّل حياتي هذا العام. فمن أجل كتابة البحث قرأت العشرات من الدراسات وفصول الكتب عن التغير المناخي. ولطبيعة البحث فقد ركزت على استراتيجيات الشركات في التواصل مع مختلف فئات المجتمع حول دور هذه الشركات في الاستدامة بشكل عام، وفي تخفيف وطأة التغير المناخي بشكل خاص.

لاحقًا وجدت نفسي وقد عملت في مركز بحثي مهتم بدراسة أشكال التواصل المختلفة وتأثيرها على سلوك الأفراد والمجتمعات فيما يخص التحول إلى الطاقة النظيفة. وامتد اهتمامي بالأمر إلى السفر ذلك العام إلى ألمانيا حيث تطوعت للعمل في تنظيم المؤتمر الثالث والعشرين للأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ.

لم أكتب هذه المقدمة الشخصية إلا لهدف واحد؛ التوضيح، بقصة واقعية، كيف لمنشور على فيسبوك أن يمتد تأثيره ليدفع بقضية التغير المناخي إلى رأس قائمة الاهتمامات لشخص لم يكن يفكر بهذا الأمر على الإطلاق.

بالطبع لا ينفي التركيز على أهمية وسائل الإعلام الاجتماعي دور وسائل الإعلام التقليدية. فهي أدوات مهمة لنشر الوعي بقضايا مجتمعية تخص دولًا وأقاليم جغرافية واسعة. لعل أقرب مثال ما يشهده العالم بأكمله من دور ملحوظ للإعلام في التحديث بآخر التوصيات العلمية والإجراءات الرسمية لمجابهة وباء كوفيد-19. ولا يزال التليفزيون هو المصدر الأكثر انتشارًا في الاتحاد الأوروبي للحصول على معلومات عن القضايا البيئية، حسبما قالت دراسة نُشرت في العام 2020.**

ولكن، لطالما كانت هذه الوسائط، كالراديو والتليفزيون والصحف، ذات طابع توجيهي حيث تنتقل الرسالة عادة من القائمين على هذه الوسائل المختلفة إلى الجمهور المتلقي. وهنا جاء الإعلام الاجتماعي بخصائص من شأنها سد بعض الفجوات وتلبية بعض الاحتياجات الهامة التي لم تلبها الوسائل التقليدية بشكل كافٍ.

إضفاء الطابع الشخصي

يأتي التفاعل كأبرز هذه الخصائص. فتتميز وسائل التواصل الاجتماعي (الويب 2.0) باعتمادها الأساسي على المستخدم. فاندمجت الأدوار ولم يعد إنتاج المحتوى حكرًا على الصحافيين ومنتجي البرامج الإذاعية والتليفزيونية. في ذلك السياق، ينتج المستخدم المحتوى بمختلف أشكاله النصية والمرئية والمسموعة، وهو أيضًا المستهلك والمقيم والمراجع لما ينشره غيره من المستخدمين.

عند تسليط الضوء على أزمة المناخ، غالبًا ما تبرز لنا طبيعتها الشاملة التي تمس كل أشكال الحياة من جوانب مختلفة. بالتالي لا تتم دراسة هذه الظاهرة من قبل علماء المناخ فقط. بل تداخلت أفرع المعرفة لدراسة الأسباب والتأثيرات وبالطبع كيفية مجابهة الأزمة. على سبيل المثال وليس الحصر، ينشر العلماء أبحاثًا عن التغير المناخي في المجلات والمؤتمرات العلمية الخاصة بالإنسانيات والعلوم الاجتماعية، والهندسة والزراعة، والعلوم السياسية والاقتصادية.

لهذا، لا يمكن الاستغناء عن دور منصات

* باحث مصري في علوم الاتصال

التواصل الاجتماعي كوسيط يضفي طابعًا شخصيًا ومبسطًا على الموضوعات الأكثر تعقيدًا. هذا بالإضافة إلى انتشار واسع وعابر للحدود. فلا مجالَ للمقارنة بين عدد قراء الأبحاث العلمية وأعداد مستخدمي موقع فيسبوك مثلًا، والذي اقترب عدد مستخدميه النشطين من 2.9 مليار شهريًا حسب إحصاءات شهر تموز/يوليو عام 2021.

وبشكل عام، وجد العديد من الباحثين أن نسبة كبيرة من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي يضعون ثقتهم في المحتوى الذي ينشره أصدقاؤهم على هذه المنصات. وهو أمر منطقي إلى حد كبير، فأغلب الظن أن معدل الثقة في إعلانات الشركات، على سبيل المثال، ليس كبيرًا بالضرورة لأن المستخدم يعلم أن الإعلان وسيلة تسويقية تستغلها الشركة لجني الأرباح. أما توصيات وآراء الأصدقاء فليس لها نفس الدافع، وبالتالي فهي أكثر جدارة بالثقة.

على المنوال نفسه، تتنامى الدعوات التي تحث العلماء والحكومات والمنظمات غير الحكومية على الاستفادة من مواقع التواصل من أجل بناء الزخم حول أزمة المناخ والاستمرار في إنعاشه كلما ضعف. فالتأثير في صناع القرار ليس كافيًا بالتأكيد، حيث تحتاج هذه الأزمة إلى تضافر الجهود على جميع المستويات، بل تغيير أنماط استهلاك وإنتاج اعتاد الأفراد عليها لعقود عدة.

المؤثرون والحملات

إلى جانب الانتشار الواسع لمنصات الإعلام الاجتماعي، تلعب الأصوات المؤثرة والحملات على هذه المواقع دورًا فعّالًا في النضال من أجل حماية كوكب الأرض. بالطبع تختلف فاعلية الحملات من مجتمع إلى آخر، لكننا رأينا بشكل محدد كيف نجحت بعض هذه الحملات في تسليط الضوء، بل تغيير مفاهيم واتخاذ خطوات على أرض الواقع، لمعالجة قضايا

AFP

الناشطة الشابة السويدية في مجال المناخ «غريتا تونبرغ»

هامة. «أنا أيضًا» كانت من أهم هذه الحملات. بدأت بالإنجليزية باستخدام وسم MeToo# وسرعان ما انتشرت بلغات مختلفة في دول عديدة بهدف تسليط الضوء على قضية العنف الجنسي ضد النساء.

وفي سياق مشابه، ظهرت السويدية «غريتا تونبرغ» (Greta Thunberg)، 18 عامًا، كأبرز ناشطة في مجال المناخ على مستوى العالم. توصف تونبرغ عادة بأنها مصدر إلهام للشباب بسبب رسائلها القوية الداعية للإصغاء للعلماء من أجل مجابهة هذه «القضية الوجودية» كما وصفتها ذات مرة. وقد نظمت هذه الناشطة وشاركت في فعاليات في دول عدة، لكن ربما لم تكن لتصبح بهذه الشهرة والتأثير لولا وجودها النشط على مواقع التواصل الاجتماعي، لا سيما انستغرام بعدد متابعين يزيد على 12 مليون مستخدم، وتويتر حيث يتابعها 5 ملايين مستخدم، وفيسبوك حيث يتابع صفحتها ما يزيد على 3 ملايين مستخدم.

ساعدت منصات التواصل الاجتماعي تونبرغ في نشر رسالتها بأهمية التحرك العاجل والضغط الشعبي من أجل مجابهة التغير المناخي. فبعد شهر واحد من أول تظاهرة لتونبرغ في آب/أغسطس 2018، امتدت التظاهرات المدرسية من أجل المناخ إلى 270 مدينة وقرية حول العالم.

سلاح ذو حدين؟

ينشغل باحثون بدراسة العلاقة بين الإعلام الاجتماعي وأزمة المناخ. بشكل أكثر تحديدًا، أصبح التغير المناخي أحد المحاور الهامة في بعض الدراسات التي تركز على الأخبار المضللة، وما أصبح يُعرف الآن بظاهرة ما بعد الحقيقة. تنامى استخدام هذه المفاهيم في العقد الأخير في ظل الانتشار الواسع لمنصات التواصل الاجتماعي ودورها الملحوظ كمصدر معلومات للملايين من مستخدميها حول العالم.

هناك بالفعل أزمة ثقة في المعلومات المناخية تتسبب فيها عوامل خارجية وسيكولوجية أيضًا. لعل أهم تلك العوامل الخارجية الانتشار القوي والواسع للحملات التضليلية (disinformation). فعلى الرغم من قدم هذه الاستراتيجيات في عالم السياسة فإنها استخدمت بشكل منظم من قبل شركات كبرى لها مصالح تتعارض أحيانًا مع العلم والمصلحة العامة. رأينا مثالًا لتلك الحملات في القرن الماضي من قبل شركات التبغ الكبرى، ونرى إشارات تدل على وجودها اليوم من قبل شركات الوقود الحفري والتي ربما تتضرر مصالحها إذا ما التزمت الحكومات بوتيرة متسارعة للحد من انبعاثات الكربون عن طريق التحول إلى مصادر الطاقة المتجددة.

من هنا برزت أهمية التثقيف والتوعية للقارئ أو مستخدم مواقع التواصل الاجتماعي، وحتى المواقع الإخبارية. فاكتسبت مهارة التفرقة بين الخبر الصحيح والخبر الكاذب، أو المعلومة الصحيحة والمغلوطة، أهمية جعلتها محور استراتيجيات جديدة لمجابهة التهديدات الناتجة عن الأخبار الزائفة المتعمدة. فعلى سبيل المثال بدأت الحكومة الفنلندية بإدماج مهارات التفكير النقدي، والتدقيق على المعلومات في مناهج التعليم الرسمي الأساسي.

أخيرًا، أضحت وسائل الإعلام الاجتماعي بلا شك ساحة تمتد فيها استراتيجيات قديمة كالقوة الناعمة. يستطيع العلماء والحكومات والقطاع الخاص استخدامها للتأثير في الرأي العام بشأن قضايا مصيرية مثل التغير المناخي. وبمنظور آخر، يستطيع أيضًا الرأي العام استخدامها لحشد الجهود والتأثير في صانعي القرار من أجل الإسراع في جهود مجابهة الأزمة والتعامل مع تبعاتها التي لم تعد مستقبلية بل أصبحت واقعًا نعيشه اليوم■

** Eurobarometer, Special. "Attitudes of European citizens towards the environment." 295 European Commission (2020).

حماية البيئة في النزاعات المسلحة:

القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية

يشهد إدراكنا وفهمنا للبيئة وتفاعلنا معها بوصفنا بشرًا تطورًا على نحو مستمر. ومع ذلك، وعلى الرغم من الأهمية الوجودية للبيئة الطبيعية بالنسبة لنا جميعًا، فلا يوجد تعريف متفق عليه في القانون الدولي لهذا المصطلح.

واستنادًا إلى تاريخ صياغة البروتوكول الإضافي الأول والقواعد نفسها، تدرك «المبادئ التوجيهية للجنة الدولية للصليب الأحمر لعام 2020 بشأن حماية البيئة الطبيعية في النزاعات المسلحة» البيئةَ الطبيعية بأنها «**العالم الطبيعي جنبًا إلى جنب مع نظام العلاقات المتبادلة التي لا تنفصم عراها بين الكائنات الحية وبيئتها غير الحية، بأوسع نطاق ممكن يشمله معناها**» (الفقرات 16–17). وهذا يشمل «الغلاف المائي العام، والمحيط الحيوي، والغلاف الأرضي، والغلاف الجوي (بما في ذلك الحيوانات والنباتات والمحيطات وغيرها من المسطحات المائية والتربة والصخور)» بالإضافة إلى «**العناصر الطبيعية التي تكون أو قد تكون نتاجًا للتدخل البشري**»، مثل المناطق الزراعية ومياه الشرب.

وحسب النظرة الإسلامية للعالم، فإن كل شيء في هذا الكون هو من خلق اللّه، والبشر مؤتمنون على الحفاظ عليه وحمايته، والإسهام في تطوير الحضارة الإنسانية.[1] يكمل هذا الرأي وجهةَ نظر القانون الدولي الإنساني، فيتعامل مع العالم الطبيعي بمعنى واسع النطاق باعتباره كل شيء في الكون، فيتيح مساحة لفهمنا المتزايد لأهمية وتأثير المناخ والبيئة على البشر إذا لم يُعتنَ بهما الاعتناء الواجب. وهذا يعكس نهجًا مشتركًا لحماية البيئة الطبيعية بحد ذاتها، والاعتراف بقيمتها الجوهرية (المبادئ التوجيهية، الفقرات 19–21).

من مخطوطة «الحيوان»، التي رسمت في مصر أو سوريا، القرن الرابع عشر الميلادي، ومحفوظة في دار الكتب بميلانو

سير العمليات العدائية والتدمير العشوائي

من المسلم به عمومًا أن البيئة الطبيعية ذات طابع مدني (المبادئ التوجيهية، الفقرات 18–21). وعلى هذا الأساس فجميع أجزائها المختلفة

تقدم الشريعة الإسلامية مجموعة من القواعد للحفاظ على البيئة الطبيعية وحمايتها، بما في ذلك حظر الإضرار المتعمد بالأعيان المدنية أثناء العمليات العدائية

مشمولة بالحماية المرتبطة بهذا الوضع. ففي أثناء سير العمليات العدائية، تحظى الالتزامات التي تقع على عاتق أطراف النزاع، بما في ذلك مبادئ التمييز والتناسب والاحتياطات، بدور مهم في ضمان أخذ الآثار على البيئة الطبيعية بعين الاعتبار (**المبادئ التوجيهية، القواعد 5–9**). تتطلب هذه القواعد من أطراف النزاع عدم استهداف أي جزء من البيئة الطبيعية ما دام يحتفظ هذا الجزء بوضعه المدني، مع مراعاة الضرر المحتمل على البيئة الطبيعية للتأكد من أنه ليس ضررًا مفرطًا مقارنةً بالميزة العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة من هجوم على هدف عسكري، واتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة لتجنب وتقليل الأضرار الجانبية التي تلحق بالبيئة الطبيعية.

يمكن العثور على هذا المبدأ الأساسي أيضًا في الشريعة الإسلامية، الذي يقدم مجموعة من القواعد للحفاظ على البيئة الطبيعية وحمايتها، بما في ذلك من خلال حظر الإضرار المتعمد بالأعيان المدنية أثناء العمليات العدائية. ففي قانون الحرب حسب الشريعة الإسلامية، تبرز حماية البيئة الطبيعية كأحد شاغلين رئيسيين، إلى جانب حماية المدنيين. إذ تستند الشريعة الإسلامية على نهج «القيمة الجوهرية»؛ لأنها تحظر إلحاق الضرر غير الضروري بالبيئة الطبيعية حتى لو لم يتضرر البشر.

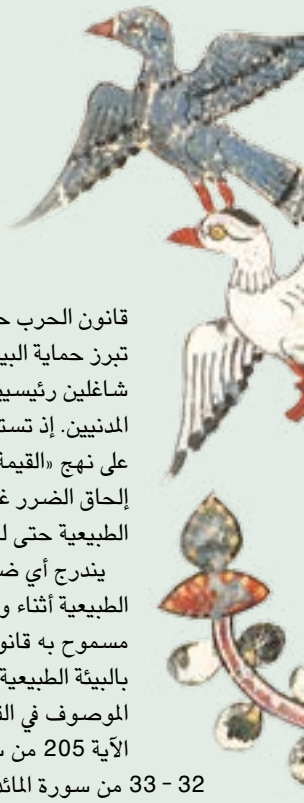

يندرج أي ضرر يلحق بالبيئة الطبيعية أثناء وقت السلم أو ضرر غير مسموح به قانونًا أثناء النزاع المسلح بالبيئة الطبيعية، ضمن الفعل الإجرامي الموصوف في القرآن (على سبيل المثال: الآية 205 من سورة البقرة، والآيتان 32 - 33 من سورة المائدة) باعتباره فسادًا في الأرض (ومعناه الحرفي: تدمير/ضرر في الأرض) وهو أحد الأفعال التي تندرج ضمن جريمة الإرهاب بموجب الشريعة الإسلامية. وهذا يشبه في طبيعته قواعد القانون الدولي الإنساني التي تحظر إلحاق الضرر غير المشروع أو تدمير غير مشروع لأي جزء من البيئة الطبيعية.[2]

ومن ثم، توجد أسس شرعية إسلامية وبعض

أحمد الداودي* وسارة غيل**

تحظى حماية البيئة في أثناء النزاعات المسلحة باهتمام متجدد في ضوء أزمة المناخ والبيئة المستمرة. وهي في جوهرها ليست ظاهرة جديدة إذ تتضمن بعضُ الأسئلة المشتركة بين القانون الدولي الإنساني الحديث والمناقشات التاريخية ذات الطابع الإسلامي الأساسَ الذي تقوم عليه حماية البيئة الطبيعية. في هذا المقال يسلط الكاتبان الضوء على الطابع المدني للبيئة الطبيعية بموجب القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية، وأوجه التشابه بينهما ومدى التوافق وأهمية الاستعانة بالموروث القانوني والتشريعي المتنوع من أجل تعزيز حماية البيئة أثناء النزاع المسلح.

* المستشار القانوني للشريعة الإسلامية والفقه باللجنة الدولية للصليب الأحمر.

** مندوبة في اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

الدلائل التاريخية على أن ممارسات الدولة في الإسلام تعترف بالطابع المدني للبيئة الطبيعية وتتجنب إلحاق الضرر بها إلا إذا اقتضت الضرورة العسكرية ذلك.

متى تجوز مهاجمة جزء من البيئة الطبيعية؟

على الرغم من أن مصطلح «**البيئة الطبيعية**» لم يُستخدم من قبل فقهاء المسلمين في العصور الوسطى، فإن القواعد ذات الصلة بالقانون الدولي الإنساني التي طوروها تضمنت باستمرار قِسمًا عن تدمير الممتلكات، حيث نظموا - وتداولوا بشأن - حظر إلحاق الضرر بأجزاء من البيئة الطبيعية أو جواز ذلك.

عند دراسة الموقف الشرعي الإسلامي بشأن حماية البيئة الطبيعية، يجد المرء مثالًا مهمًا في الجدل الدائر الذي بدأ في القرن السابع ويستمر حتى يومنا هذا. فمن ناحية، توجد تعليمات محددة تحظر الإضرار بأجزاء من البيئة الطبيعية. ومن الأمثلة على ذلك تحريم النبي قطع الأشجار باستثناء تلك التي تمنع من الاشتباك.[3] وبنفس المنطق، أصدر الخليفة أبو بكر الصديق (المُتوفَّى عام 634م) عشر تعليمات معروفة لقائد جيشه يزيد بن أبي سفيان، وتشمل: «**لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا... ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة...**» تتوافق الإشارات إلى حماية الأشجار المثمرة وأشجار النخيل مع الحماية التي يكفلها القانون الدولي الإنساني لهذه الأجزاء من البيئة الطبيعية بحكم طابعها المدني، وكذلك مع القواعد التي تحكم الأعيان والممتلكات التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين، بما في ذلك المواد الغذائية، المناطق الزراعية والثروة الحيوانية ومياه الشرب (الخطوط التوجيهية، القاعدة 10).

من ناحية أخرى توجد مأثورات عن أن النبي أمر بإتلاف النخيل الخاص بقبيلة بني النضير عام 625م، والنخيل وأشجار العنب الخاص بالعدو في معركة الطائف في عام 630م. على الرغم من عدم صدور الأمر في سياق نزاع مسلح وعدم نشوب قتال، فهو وثيق الصلة بقانون الحرب في الإسلام. تشير المصادر الفقهية والتاريخية إلى أنه أمر أُصدر إما لإجبار القبيلة على الاستسلام أو بسبب موقع النخيل. وفي الواقع، قد يكون كلا الأمرين صحيحًا، مع الأخذ •••

اختلفت آراء الفقهاء حول جواز استخدام الأسلحة الحارقة ضد العدو بوجه عام، فبعضها يحرم ذلك والبعض الآخر يستكرهه

في الاعتبار العدد القليل جدًّا من النخيل الذي قيل إنه أتلف، ما بين نخلتين وست نخلات. في معركة الطائف، استُخدمت أشجار النخيل كخط آخر للتحصين، وأمرت القوات بتدمير النخيل وأشجار العنب لإجبار العدو على وقف القتال. في هذه الحالة، صارت أشجار النخيل على ما يبدو هدفًا عسكريًّا: فقد ساهم استخدامها كحصن مساهمةً فعَّالة في العمل العسكري، ويمكن القول بأن أوامر تدميرها قدمت ميزة عسكرية محددة.

توجد مناقشات موثقة حول هذه الأحداث بين النبي وقادة أعدائه حول جواز إلحاق الضرر بهذه الأجزاء من البيئة الطبيعية. فقد قال أحد بني النضير للنبي إن تدمير النخيل سيكون فسادًا «تحرمه [يا محمد] وتدين مرتكبيه». يؤكد القرآن (سورة الحشر، الآية الخامسة) أن إلحاق الضرر محرمٌ من حيث المبدأ، لكنه يؤيده في حادثة بني النضير. كما وثَّق سجال شعري بين الشاعر سماك من بني النضير والشاعر المسلم حسان بن ثابت (ت 674) حول الحادثة وشرعية الإضرار بأشجار النخيل. وعلى نفس المنوال، خلال معركة الطائف، طلب العدو من النبي عدم تدمير النخيل أو شجر العنب. وحثوه على الاستيلاء عليها كغنائم حرب إذا هُزموا أو ببساطة على عدم تدميرها، تعظيمًا للّه وأواصر القرابة بين الأطراف المتحاربة، وهو ما قبله النبي.

حماية البيئة الطبيعية التي تقدمها القواعد الخاصة بوسائل وأساليب الحرب

توجد أيضًا أوجه تشابه بين القانون الدولي الإنساني والشريعة الإسلامية بشأن حماية البيئة من خلال القواعد المتعلقة بوسائل وأساليب الحرب، مثل استخدام السموم أو الأسلحة الحارقة.

إن الأثر المحتمل للأسلحة الحارقة عند استخدامها ضد الأشياء التي تشكل جزءًا من البيئة الطبيعية أو بالقرب منها كبير. فإذا استخدم الجيش أسلحة حارقة بالقرب من النباتات والحيوانات، فقد تطول ألسنة النيران هذه الكائنات، ما يزيد احتمالية حدوث تأثيرات غير متناسبة أو عشوائية على البيئة الطبيعية. وبموجب القانون الدولي الإنساني يجب توخي الحذر بشكل خاص في حالة استخدام الأسلحة المحرقة لتجنب الأضرار الجانبية التي تلحق بالبيئة الطبيعية والحد منها (القاعدة 23 من المبادئ التوجيهية).

ينعكس هذا المنطق في الشريعة الإسلامية. على الرغم من القدرة المحدودة لبعض الوسائل والأساليب الحربية العشوائية على إحداث ضرر لأجزاء من البيئة الطبيعية على وجه التحديد (لا أعيان مدنية أخرى)، فقد تناول الفقهاء المسلمون في العصور الوسطى جواز استخدامها. على

سبيل المثال، أجاز الفقهاء بالإجماع استخدام المنجنيق (لإطلاق الحجارة الكبيرة أو كتل نار) ضد تحصينات العدو، إذا اقتضت الضرورة العسكرية ذلك لا غير. واختلفت الآراء حول جواز استخدام الأسلحة الحارقة ضد العدو بوجه عام، فبعضها يحرم ذلك والبعض الآخر لا يستحسنه، بينما أجازه فريق ثالث إما لضرورة عسكرية أو استنادًا إلى مبدأ المعاملة بالمثل. كما ناقش الفقهاء جواز إطلاق النار على تحصينات العدو ومعاقله بالسهام المسمومة أو النارية. فبعضهم حرم استعمالها وأبدى آخرون كراهة في استخدامها على أساس أن العدو يمكن أن يرد هذه السهام على المسلمين، ولعدم وجود سابقة على عهد النبي. وخلاصة القول أن الشريعة الإسلامية تبرز ضرورة توخي عناية كبيرة عند استخدام النار كسلاح في الحرب.

علاوة على ذلك، فإن حظر السموم أو الأسلحة السامة يمكن أن يتيح حماية غير مباشرة للبيئة الطبيعية عندما يُقصد به أو يُصمم لقتل البشر أو إصابتهم بجروح، على سبيل المثال تسميم نهر يستخدم لمياه الشرب (القاعدة 19 من المبادئ التوجيهية). وإذا لم تستخدم لهذا الغرض، فقد تُحظر أيضًا عند استخدامها ضد البيئة الطبيعية بموجب قواعد القانون الدولي الإنساني الأخرى، على سبيل المثال إذا كان ذلك سيؤدي إلى أضرار جانبية غير متناسبة بالبيئة الطبيعية.

تعالج الفتاوى الإسلامية في العصور الوسطى هذا السؤال عندما أطلقت أسلحة مسمومة أو نارية أو مزيتة على تحصينات العدو ومعاقله. والاعتبارات مماثلة لتلك المنصوص عليها في القانون الدولي الإنساني بشأن استخدام السموم أو الأسلحة السامة، من حيث إنها قد تسمم مصادر المياه والغطاء النباتي وتقتل البشر والماشية. يحظر الفقيه العراقي الشيباني (تُوفِّي في عام 805)[4] تسميم مصادر مياه العدو بغرض قتلهم، لكنه أجاز قطع إمدادات المياه عن تحصينات العدو أو وضع السم أو الدم في المياه لإفسادها بغرض إجباره على الاستسلام من داخل تحصيناتهم. غير أن هذا الاستثناء الأخير لا يُسمح به بموجب قواعد القانون الدولي الإنساني، ولكن بغض النظر عن هذه الفروق الدقيقة، فالأساس المنطقي بالنسبة لغالبية الفقهاء المسلمين في آرائهم القانونية التي يعود تاريخها إلى القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية - إذا ما استعرنا مصطلحات القانون الدولي الإنساني - هو تجنب الخسائر غير المشروعة في الأرواح وتجنب إلحاق الضرر بالأعيان المدنية، بما في ذلك البيئة الطبيعية.

* * * * *

يؤدي الضرر الناجم عن النزاع أو تدمير البيئة الطبيعية وزيادة ندرة الموارد الطبيعية وأزمة المناخ إلى تفاقم العواقب الإنسانية للنزاع المسلح. ولأننا نفهم بدرجة أكبر الآثار المعقدة للتدهور البيئي وأزمة المناخ على السكان المتضررين من النزاعات، فإن حماية البيئة الطبيعية أمر أساسي في نزاعات العصر الحديث.

تقدم المبادئ التوجيهية للجنة الدولية توصيات عملية بهدف الحد من الأثر البيئي للنزاع المسلح والعواقب الإنسانية على السكان المتضررين من النزاع. وباعتبارها جزءًا من تراثنا الجماعي والعالمي فإن حماية البيئة الطبيعية تتجاوز الثقافات القانونية والتاريخ. وتوضح الأمثلة التي ناقشناها أن مداولات فقهاء القرن الثامن حول كيفية وسبب حماية البيئة هي صورة للمداولات الموجودة في إرشادات اللجنة الدولية للقرن الحادي والعشرين. يقع على عاتق أطراف النزاع الالتزام باحترام هذه القواعد والتمسك بها، وفهم أساس هذه الحماية ولم تتزايد أهمية هذه الحماية في سياق النزاعات المسلَحة في العصر الحديث ■

★ نُشر هذا النص في الأصل بالإنجليزية في مدونة «القانون الإنساني والسياسات» وهي منصة للنقاش حول القانون الدولي الإنساني. رابط المقال: https://blogs.icrc.org/law-and-policy/2021/06/03/protecting-environment-armed-conflict-ihl-islamic-law/

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 30 وسورة هود الآية 61. انظر أيضا عبد الله شحاتة، رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة (القاهرة: دار الشروق، 2001)، ص 13–14، 17–20.

[2] انظر على سبيل المثال، القاعدة 5 بشأن التمييز بين الأعيان المدنية والأهداف العسكرية، والقاعدة 13 بشأن حظر تدمير البيئة الطبيعية غير المبرر بضرورة عسكرية ملحة.

[3] راجع الحديثين رقمي 18155 و18156 في أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحرير: محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 2003)، المجلد 9، ص. 154–155.

[4] Ahmed Al-Dawoody, The Islamic Law of War: Justifications and Regulations (New York: Palgrave Macmillan, 2011), pp. 124–125.

حاوره: أحمد زكي عثمان*

المفكر المغربي
إدريس الفاسي الفهري
في حوار
مع «الإنساني»:

مبدأ المعاملة بالمثل في الإسلام لا يمتد للتعذيب والتمثيل بالجثث

يبحث أستاذ الفقه المغربي البارز الدكتور إدريس الفاسي الفهري، في قضايا أصولية، وكيفية فهمها في حياتنا المعاصرة. وقد بلور عبر السنوات، أفكارًا متطورة وأصيلة في القانون الدولي الإنساني، وحماية المدنيين في أوقات النزاعات. وفي هذا الصدد، يحتل كتابه «مفهوم السلام في الإسلام» موقعًا رائدًا بعنايته الأصيلة بتحليل الفقه الإسلامي للوصول إلى المشترك الإنساني.

وعلى هامش زيارته للقاهرة، لحضور مؤتمر بجامعة الأزهر، حلّ «الفهري» ضيفًا على المركز الإقليمي للإعلام، التابع للجنة الدولية للصليب الأحمر، وكان له هذا الحوار، الذي شرح فيه بعضًا من آرائه المهمة حول الحرب والسلام، والقانون الدولي والإسلام، ومعاملة الأسرى في الإسلام.

■ **الإنساني: هل هناك درجة من الإجماع في الإسلام على القواعد العامة للحرب؛ بمعنى هل تضمنت حالة الإجماع فكرًا معينًا لحماية المدنيين؟**

الفهري:

هنالك مجموعة من المبادئ في الشريعة الإسلامية بمثابة القواعد العامة الكلية التي لا يمكن الاختلاف فيها ولا تقبل النسخ أو التغيير. فهي من نوع الإجماع الذي لا يمكن أن يكون إلا إجماعًا. بل قد جاء عند كثير من الفقهاء المسلمين التصريح بأنها من المتفق عليه في جميع الملل والشرائع. وهي لذلك مما يمكن أن نعبر عنه في الاصطلاح المعاصر بالمشترك الإنساني.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، الأمر بالعدل، بعمومه الشامل للعدل مع النفس ومع الغير، وعلى المستوى الفردي والمجتمعي، والسياسي، والداخلي، والدولي، هو كلي من كليات الشريعة الإسلامية التي لا يمكن أن يأتي فيها ما يخالفه، بل إن جميع الأحكام تُراجع على أساسه بحيث يُنقض كل حكم يخالف مبدأ العدل، ويُرد كل رأي أو قياس أو قول يُخل به. ويبلغ الأمر في موضوعه مستوى خاصًا من التشديد، بحيث ورد ما يدل على أن حالة العداوة في أقصى درجاتها مما لا ينبغي أن تصرف المتبع للشريعة الإسلامية عن العدل، وهو ما تعرفونه من قول اللّه عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8]. بل قد ورد في الشريعة ما يدل على العدل في الأشياء العادية اليومية البسيطة، كالعدل بين الرِّجلين، كما في حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «لَا يَمْشِ أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ لِيُنْعِلْهُمَا جَمِيعًا أَوْ لِيَخْلَعْهُمَا

جَمِيعًا». ومثله العدل بين اليدين في الحمل، والعدل بين الأولاد في العطية والهدية، وحتى في البشاشة والقبلة، إلى غير ذلك. ومثل مبدأ العدل مبدأ الوفاء بالعهود، ومبدأ اتباع الأعراف المستقرة... إلى غير ذلك.

ومن هذا القبيل القواعد العامة للحرب، وما تتضمنه الشريعة الإسلامية من حماية المدنيين، الذي أشرتم إليه في سؤالكم، فإنه فضلًا عن الإجماع العام التام بين علماء الشريعة الإسلامية في موضوعه عبر جميع الأعصار والأقطار، تتميز الشريعة الإسلامية بأمر ملفت للنظر، وهو أن الحماية المكفولة للمدنيين لا تختلف في شيء حالة الحرب عما هي عليه تعاليم الشريعة الإسلامية في موضوعها حالة السلم.

وتعليل ذلك في نظري المتواضع قد بينته تفصيلًا في الكتاب الذي أشرتم إليه ضمن تقديمكم عن مفهوم السلام في الإسلام وتأصيل مبادئه التي تسهم في القانون الدولي عمومًا والقانون الدولي الإنساني على وجه الخصوص.

وأصل ذلك التعليل أن المبادئ الكلية العامة التي أشرنا إليها، ترجع إلى مبادئ أعلى تحكمها كما تحكم غيرها من مبادئ الشريعة الإسلامية ومقرراتها، وهي ما يُسمى بمقاصد الشريعة، وهي مرتبة على ثلاث مراتب: الضروريات، والحاجيات، والتحسينات. والكليات الضرورية لها المكانة العليا بحيث تكون المحافظة على الحاجيات والتحسينات خادمة لها، ومتممة لما يراد بها. وعلى رأس هذه الضروريات تأتي المحافظة على النفوس عمومًا، أي نفس كانت. ولذلك كان القتال بما فيه من إهدار للدماء بالنسبة للشريعة الإسلامية هو حالة ضرورة قصوى. وهذا مبين بالتنصيص الصريح في القرآن العظيم، حيث يقول الله عز من قائل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208]، والتأكيد في الآية بكلمة «كافة» يدل بوضوح على شمول هذا الأمر لمختلف الأحوال والأشخاص والأمكنة والأزمان، فليس بعد ذلك بمستغرب أن يُسمى هذا الدين بالإسلام، أي الدخول في السلم.

وعلى هذا الأساس فإن من مبادئ الشريعة الإسلامية العامة التي لا يمكن أن تتغير مبدأ المحافظة على النفوس أو عدم التعدي على الدماء، ولذلك فإن القتال إنما هو حالة ضرورة بالنسبة للمسلمين.

والسيرة النبوية خير شاهد على ذلك، فقد بلغت الحال بالمسلمين، كما تعلمون، جراء الاضطهاد الذي تعرضوا له أن تركوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلادهم وأهلهم ومالهم، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية، ثم الهجرة إلى المدينة؛ وهي الهجرة التي فرضت فرضًا عامًّا، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه من جملة المهاجرين. وكل ذلك قد كان من باب المسالمة في أقصى صورها التي يمكن تخيلها.

■ الإنساني: لكن ما الحال عند نشوب حرب أو نزاع؟

يمكننا للإجابة عما تفضلتم به أن نستأنف الكلام تبعًا لما تقدم في الجواب عن سؤالكم السابق، فإننا نعلم من السيرة النبوية أن الاعتداء على المسلمين استمر بعد هجرتهم، وكان المقصود منه استئصال شأفتهم. ومن هنا جاء الإذن في القتال نصًّا في القرآن العظيم، وذلكم قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 39، 40].

ويمكنكم أن تلاحظوا من الآية أن الإذن في القتال قد ورد مبررًا ومعللًا بكل الاضطهادات التي تعرض لها المسلمون: «بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا»، وأن ذلك الإذن ورد مبررًا ومعللًا بالذي حكينا من الهجرة التي جعلت المسلمين جميعًا في حالة لجوء: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ»، وأن ذلك الإذن ورد مبررًا ومعللًا بأنه لم يعد هنالك حل آخر من أجل وجود الإسلام، إما أن يدخل المسلمون في الحرب وإما أن لا يعود هناك دين: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا». ولعلكم سمعتم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم في أول حروبه يوم بدر حيث قال فيه: «اللَّهُمَّ أَنجِزْ لِي ما وَعَدْتَنِي، إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ فَلَنْ تُعْبَدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا».

ولما جاء هذا الإذن لم يأتِ مطلقًا، جاء مقيدًا أولًا بالمبادئ العامة للشريعة الإسلامية؛ من العدل، والإحسان، والرحمة، وليست رحمة الاستعلاء ولكن الرحمة الواجبة، إلى درجة أنه في المذهب المالكي يلحقون ما يتعلق بالجهاد والحرب بباب العبادات. وأول مقرر في الموضوع أن أساس قيام الحرب هو الرحمة. وفي صحيح مسلم وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل».

بمعنى أن السلم حالة أصلية وعامة، ولكن عندما يكون هناك قتال أو نزاع، فلا يكون إلا على أساس المعاملة بالمثل، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

ومما يجب ملاحظته أن قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» لم تأتِ وحدها، ولكن جاء معها «وَلَا تَعْتَدُوا»، وجاء معها «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

ولا بد هنا من ملاحظة وهي أنه عندما جاءت الشريعة الإسلامية وجدت الحروب القبلية، وحروب الانتقام، وحروب السلب والنهب، وقطع الطرق، وحروب الاستعلاء. ولكن عندما حصر النص القرآني القتال بمن ينصب القتال، فقد منع ضمنيًّا كل هذه الأنواع من الحروب.

■ الإنساني: ماذا عن سلوك المسلمين طرفًا في القتال؟

هذا وجه ثانٍ، أي السلوك في أثناء الحرب، وهو مضبوط بضوابط في الشريعة الإسلامية في غاية الانسجام والتطابق مع القانون الدولي الإنساني بصيغته الحديثة المتفق عليها دوليًّا ضمن المعاهدات والبروتوكولات التي تعرفونها بالتفصيل اللازم.

والاختلاف بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الإنساني إنما هو في منهج التعريف: فالمدنيون يعرَّفون في القانون الدولي الإنساني بطريقة سلبية، أي بتعريف المقاتلين، وما عداهم يُعد من المدنيين الممنوع قتالهم. وأما في الشريعة الإسلامية فإن المدنيين الذين يُمنع قتالهم محددون بأعيانهم، فمنهم: المسالمون: كالرهبان الملتزمين بأديرتهم والطواقم الإغاثية والطبية، والرسل، ومن يلحق بهم من الدبلوماسيين ونحوهم، ومنهم: العاجزون عن القتال: كالشيوخ والأطفال والنساء الذين لا يقدرون على القتال، ومنهم المحاجزون: الذين ليسوا بعاجزين ولكن بينهم وبين القتال حاجزًا ما: كالأسرى والتجار والصناع ونحوهم. وكل ذلك مشمول منصوص في قوله تعالى الذي ذكرناه آنفًا: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا»، ومنصوص في وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه: لا تقتلوا شيخًا، ولا امرأة، ولا المشتغلين بالعبادة، ولا الفلاحين، ولا الصُّنَّاع. ففي مجموع تلك النصوص هناك تعيين محدد بطريقة إيجابية لتعريف هؤلاء المدنيين.

ولكن هنالك مسائل فقهية وقع الاختلاف فيها بين فقهاء المسلمين قديمًا، منها الامتناع عن تخريب وسائل الحياة، وعموم الممتلكات، مع أن الملاحظ من السيرة النبوية أن الإذن في ذلك لم يرد إلا في حالة الضرورة القصوى، بل لقد احتاج الإذن في غزوة خيبر لقطع نخلة أو بضع نخلات إلى ورود النص القرآني الذي تعرفون: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5].

ومن المسائل المختلف فيها بين الفقهاء قديمًا

تسميم منابع المياه في الحرب، واستعمال السهام المسمومة، واستعمال المنجنيق... وهذه المسائل المختلف فيها تشبه إلى حد كبير مسائل واقعة حاليًا، منها استعمال الألغام بأنواعها، والأسلحة الكيماوية، وعموم أسلحة الدمار الشامل. ويمكن أن تقاس أحكامها عليها. ولكن إذا نظرنا إلى هذه المسائل الفقهية من زاوية أخرى أي مبدأ الوفاء بالعهود، فإن كل ما تم من ذلك التوافق دوليًا، والتعاهد على منعه، كما هي الحال بالنسبة للمعاهدات المؤسسة للقانون الدولي الإنساني، فهو ممتنع شرعيًا من غير خلاف، بل هو من القواعد اللازمة في الشرع دينيًا، لمكانة مبدأ الوفاء بالعهود في شريعة الإسلام.

■ **الإنساني: إذا كان فريق العدو مثلًا أحدث تمثيلًا بالجثث أو انتهك قاعدة من قواعد الحرب، هل هذا يبرر للطرف الآخر أن يفعل بالمثل؟**

الفهري: قاعدة المعاملة بالمثل قاعدة كبيرة معروفة في العلاقات الدولية منذ قديم الزمان. وهي قاعدة دبلوماسية، وقاعدة في العلاقات الدولية، ولكن وردت بالنسبة لحالة الحرب في الشريعة الإسلامية مجموعة من الاستثناءات جردتها من كل صلاحية في مجموعة واسعة من الحالات.

وانظروا ما تقدمت الإشارة إليه في قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا» تجدون قاعدة المعاملة بالمثل مشروطة بعدم الاعتداء.

وعلى قياس ما ورد من الأمر بقتال من ينصب القتال، ورد الأمر عند وجود رغبة في السلم أن ينخرط فيها المسلمون، وذلك طبعًا مع إعطاء المسؤولين السلطة التقديرية فيما يتعلق بصدق المبادرة وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61].

وحتى بالنسبة لحالة الإذن في قتال مثلًا، التمثيل بالجثث ممنوع منعًا قاطعًا، ولا يمكن أن يقول أحد مثّل العدو بالجثث، أو قام بالاغتصاب، أو خان العهد، فأباح لنا أن نفعل مثل ذلك بناء على قاعدة المعاملة بالمثل. فإن هذه ممنوعات تُمنع إسلاميًا في جميع الأحوال.

ولعله بالمثال يتضح المقال كما كان يقال، فأنتم تعرفون من الأحداث المشهورة في السيرة النبوية ما حدث في غزوة أحد عندما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا حمزة رضي الله عنه في أرض المعركة قد قُتل غدرًا، واصطلمت أذناه، وسملت عيناه، وجُدع أنفه، وشُق بطنه عن كبده، ومُثِّل بجثته أفظع تمثيل. وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتألم أشد الألم، ولعلكم تعرفون الحديث الشريف في التمثيل بالموتى، وأن «كسر عظم الميت ككسره حيًا»، وأنتم تعرفون محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لعمه سيدنا حمزة رضي الله عنه، ومحبة سيدنا حمزة لرسول الله، وأثره في نصرة الإسلام حتى لقد لقب بأسد الله.

فعندما وجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الحال قال: «لأمثلن بسبعين منهم» أو كما قال، يعني عقابًا لهم على ما صنعوا. فنزل عليه في تلك الحال قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: 126]. فرفع رأسه وقال: صبرنا واحتسبنا. وكان وعيده بالانتقام أمرًا تراجع عنه نهائيًا بتوجيه رباني منزل، وذلك مشهور في السيرة، مشهور في تفسير الآية. ومعناه أنه حتى إذا دفعت الطبيعة الإنسانية الشخص المسلم إلى أن ينتقم، فإنه لا ينتقم إلا باحترام الأوامر الإلهية. وهذا هو جوهر القواعد والسلوك الإسلامي في حالة الحرب، فعلى الرغم من العاطفة وحالة التحفز التي يكون عليها المحارب في ساحة المعركة، هنالك حاجز داخلي من الإيمان يمنع كل هذه التصرفات، أو بمعنى آخر هذه الانتهاكات. ولا يخفاكم أن من مقتضيات العقيدة الإسلامية أن «المنتقم» اسم لله عز وجل، وهو مما لا ينبغي للمخلوقين أن يتسموا به. •••

لقد احتاج الإذن في غزوة خيبر لقطع نخلة أو بضع نخلات إلى ورود النص القرآني الذي تعرفون: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5].

■ الإنساني: ماذا عن الخروقات المستمرة لقواعد الحرب في الإسلام في العالم العربي؟ ما حدث في السنوات الماضية مثلًا تضمن انتهاكات كثيرة لهذه القواعد.

الفهري: فاقد الشيء لا يعطيه؛ وأتذكر هنا أمرًا ذا دلالة خاصة، وهو ما يوجد في مقدمة تحقيق كتاب «شرح السير الكبير للإمام الشيباني»، الذي كتبه الإمام السرخسي، والذي قام بتحقيقه مدير معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية، وقتها، الدكتور صلاح الدين المنجد. وأنتم تعلمون أن من أول الإجراءات المطلوبة في التحقيق العلمي هو جمع النسخ الخطية للكتاب من أجل المقارنة بينها للحصول على نسخة أقرب ما تكون للأصل. وعندما قام السيد المحقق بجمع النسخ، وجد مجموعة كبيرة منها قد استنسخت لصالح القادة العسكريين في الدولة العثمانية. وهذه الملاحظة ذات دلالة خاصة، ومعناها أن تسليم القيادة لمسؤول عسكري، يقترن بتسليم كتاب مفصل بالتعليمات التي يلتزم بها شرعيًّا في حالة الحرب.

ومع نشأة وتطور ما يُسمى اليوم بالقانون الدولي الإنساني فإن جيوش الدول الإسلامية عمومًا أسوة بجميع الجيوش في دول العالم تُعطى كتابًا توجيهيًّا في هذا الشأن، كما تُقدم دورات تكوينية في القانون الدولي الإنساني من أجل احترام هذه القواعد العامة، التي هي في نفس الوقت قواعد إسلامية تُحترم دينيًّا.

ولكن هذه الجماعات ليست بجيوش نظامية لتستلم توجيهات قيادية في السلوك، وليست لها مرجعية قويمة في الثقافة الإسلامية لتمكنها من معرفة معطيات الشريعة الإسلامية في هذه الشؤون.

■ الإنساني: أي أن جوهر الفارق أن الجماعات المسلحة تجهل هذه القواعد؟

الفهري: نعم، تجهل هذه القواعد، وأغلب المنتمين إلى هذه الجماعات غير منظمين تنظيمًا عسكريًّا، وإنما هي جماعات مسلحة قامت في ظرف من الظروف، وهنالك منهم من دخل في هذه الأعمال العدائية من غير وعي بالحرب، وعن غير وعي بالإسلام أصلًا، بحيث لا يعرفون التعليمات الإسلامية العامة، فأحرى أن يعرفوا التعليمات الإسلامية في شن الحرب، أو في السلوك أثناء الحرب.

ولكن لا يعذرون بجهلهم أبدًا، فإن من المعلوم ضرورة في الشريعة الإسلامية أن أخطر جرم وأشده هو الاعتداء على الدماء، وهو أول شيء يحاسَب عليه الإنسان يوم القيامة، وأول ما يفصل اللّه فيه بين الناس يوم القيامة. ومن المشهور الذي لا أعتقد أن أحدًا يجهله من تعليمات الإسلام أن اللّه عز وجل قد قضى في كتابه بأن من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا. ولكن ماذا تملك لقوم لا يفقهون ولا يريدون أن يفقهوا؟!

■ الإنساني: هلَّا زدتم أمر المحافظة على الحياة الإنسانية في الشريعة الإسلامية توضيحًا؟

في الشريعة الإسلامية لا نتحدث عن المحافظة على حياة الإنسان فقط، بل نتحدث أصالة عن المحافظة على كرامة الإنسان؛ أي حياة بدون كرامة؟ أي حياة بدون حرية؟ أي رأي لمن ليست له حرية؟ أي دين لمن ليست له حرية التدين؟ حتى إذا قال لك شخص ما قولًا ما ينبغي أن تُعمل ذهنك فيه، فمن يقول إنه يدفع الناس ويقاتل الناس من أجل أن يُدخلهم في الدين، لا يمكنك أن تقبل منه هذا لأن الدين لا تدخله بالقتال.

وجميع هذه التعليمات هي أمور من أسس الدين، والأساسي والجوهري فيها هو تكريم الإنسان، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

وأنتم تعرفون كما يعرف جميع الناس الحديث المتواتر في خطبة حجة الوداع، وتعرفون كما يعرف عموم المسلمين قوله صلى اللّه عليه وسلم في ضمن ذلك الحديث: «أيُّها النّاس! إنّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم إلى أن تلْقَوا ربّكم»، وكذلك حرمة الأعراض، وحرمة الأبشار، يعني البشرة والجلد، أي عدم التعدي بالجرح أو الضرب، وهذا كله من الاحترام لكرامة الإنسان.

النقطة الجوهرية أن قواعد السلوك في النزاعات المسلحة بالنسبة للإسلام قواعد دينية يحترمها الإنسان بظاهره، وباطنه، وقلبه، وقالبه، وسلوكه، وليست من القواعد التي لا يحترمها إلا إذا كان هنالك مراقبون

وهذا مما لا يدخل في المعاملة بالمثل كما قدمناه.

■ الإنساني: أي أن المعاملة بالمثل لا تكون إلا فيما لا يقع به إثم؟

الفهري: المعاملة بالمثل كما قلت فيها استثناءات، فرَّغت القاعدة، وقصرتها على العلاقات الدبلوماسية وهذه الأشياء الخفيفة؛ مثل استعمال التأشيرة، والاحترام المتبادل، والحقوق السيادية للدول، ولكن المعاملة بالمثل عندما يتعلق الأمر بالكرامة، أو الاغتصاب، أو أي اعتداء من الاعتداءات، ممنوعة شرعًا، بحيث لا يمكننا بوجه ولا بحال أن نتحدث فيها عن المعاملة بالمثل، لأن هناك أصولًا شرعية تجرِّم هذه الأفعال في الحرب.

فلذلك لا يمكننا، عندما نفهم الشريعة، أن نقول هذه الآية «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» تدل على قاعدة المعاملة بالمثل، إذن هذه قاعدة كلية عامة في الشريعة، لا. هذه الآية لها وجه آخر. كيف نفهم هذه القضية؟ نفهمها أنه لا تقاتلوا الذين لا يقاتلونكم، أي ليس هنالك حرب عدوان، ويوضح ذلك قوله تعالى بعدها «ولا تعتدوا».

لذلك فالنقطة الجوهرية الأولى أن قواعد السلوك في النزاعات المسلحة بالنسبة للإسلام قواعد دينية يحترمها الإنسان بظاهره، وباطنه، وقلبه، وقالبه، وسلوكه، وليست من القواعد التي لا يحترمها إلا إذا كان هنالك مراقبون، فالمسلم يستشعر رقابة اللّه عز وجل عليه في احترام هذه القواعد. والمسلم يتوقع من المخالفة العقاب الأخروي كما يتوقع العقاب الدنيوي، وهذا أيضًا من الأمور الجوهرية في الإسلام. فالعقاب الدنيوي لا يكون فقط بعقوبة الجاني، ولكن أيضًا بتعويض الضرر، بحيث إذا كان الشخص المقتول أو المجروح أو المعتدى عليه، قد نقص منه شيء بذلك الاعتداء، يعوَّض بما يقابل ذلك النقص.

مثلًا شخص قتل شخصًا آخر هو المعيل الوحيد لأسرة معينة، ما الذي ستنتفع به هذه الأسرة إذا قَتَلتَ القاتل؟ نعم ربما يحصل لها التَّشَفِّي؛ ولكن ينبغي أن يكون لها تعويض عن قتل معيلها. وقد توسع الشرع في تحديد الذين يتولون التعويض، بحيث لا تقل لي لن نجد عند هذا القاتل شيئًا، فليذهب دم هذا سدى وتبقى تلك العائلة بدون عائل، لا. فقد أنيط أمر الديات والأروش في بداية الإسلام بالعاقلة أي القبيلة كلها. وبعدما ضعف النظام القبلي، ودخلت الدولة في عهد عمر بن الخطاب إلى تنظيم داخلي جديد أنيط دفع الدية بأهل الديوان.

فأنتم تلاحظون أن الشريعة الإسلامية قد وضعت شبكة متماسكة من التشريعات ونظامًا متكاملًا لكيلا تبقَى جريمة بدون عقاب ولا يبقى ضرر من دون تعويض ■

تحفظ الذاكرة الأدبية والحربية والإنسانية جملة كتبها ذات مرة الأرجنتيني خوسيه ناروسكي (José Narosky) مفادها «في الحرب، لا يوجد جنود دون جروح». الحرب قاسية على من يختبرها. في أزمنة سابقة، كانت جراح الحرب مقصورة – أحيانًا – على الأطراف التي تتقاتل: جندي يواجه جنديًا، وطلقة سلاح في مواجهة طلقة سلاح. لكن الآن، وفي حروب الزمن المعاصر، فألم الحرب يطال الجميع. يتمدد وينفذ ويجرح كثيرين ممن لم يشاركوا في القتال. تجرح الحرب أجسادهم وأرواحهم أيضًا. ويظل أثرها وألمها حاضرًا ومقيمًا في الذاكرة الفردية والجمعية. ومع كل الألم الساكن في الذاكرة، لا يترك الناس جراح الحرب كي تنهش ذاكرتهم. كثيرون ممن اختبروا الحروب، يقاومون ويدفعون ذاكرتهم إلى العمل بدأب للتعافي ولمساعدة الغير وللتعلم من تجارب الماضي.

في هذا الملف، تطل علينا الذاكرة والحرب بأوجهها المختلفة. نحاول أن نرصد تجلياتها في التجارب الإنسانية المختلفة، في القانون الذي يخفف وطأة الحرب، وفي ذاكرة الفن والعمارة والرواية التي تخلد أثر الحرب، وفيما تبقى من ذاكرة المدن التي جرحتها وأنهكتها الحرب.

الملفّ

ذاكرتنا الإنسانية والحرب

عندما تضع الحرب أوزارها تُعلن الذاكرة نضالها

بين الجزائر وفرنسا لا يسهل قلب الصَّفحة ولا مطالعتها كماضٍ

قوات فرنسية تلقي القبض على وطنيين جزائريين، 1956 (الصورة ملونة رقميًّا حديثًا)

تُرجع الدراسات التاريخية ظهور الدولة الجزائرية الحديثة إلى بداية القرن السادس عشر الميلادي، أي بداية انفصالها عن الدولة العثمانية، وأصبح لها علاقات ديبلوماسية مباشرة مع الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، ويشار إليها في المعاهدات كمملكة أو دولة الجزائر. تمكنت بعدها من بسط سيادتها في حوض البحر الأبيض المتوسط، بفضل أسطولها البحري القوي، وفرضت الضرائب والرسوم على سفن الدول التي تعبره، مما دفع العديد من الدول إلى عقد معاهدات واتفاقيات معها.

على هذا الأساس قامت العلاقات الجزائرية الفرنسية في عام 1561، وتوطّدت أثناء الثورة الفرنسية عام 1789، عندما حاصرت الأنظمة الأوروبية حكومة الثورة الفرنسية، فاستنجدت بالدولة الجزائرية التي أنقذتها من الدَّمار والجوع، وأمدتها بقروض من دون فوائد. لكنَّ فرنسا رفضت بعدها سداد ديونها، ثم اصطنعت أزمة من حادثة المروحة الشهيرة، التي جرت بين الدَّاي حسين والقنصل الفرنسي، وشنت هجومًا مسلحًا على الجزائر انتهى باحتلالها لها.

أبشع احتلال

يُعد الاحتلال الفرنسي للجزائر من أطول وأبشع أنواع الاحتلال في العصر الحديث (1830–1962). ارتكبت أثناءه القوات الفرنسية أفظع أنواع الجرائم ضد الإنسان والبيئة، انتهجت سياسة الإبادة الجماعية، والتَّهجير القسري الجماعي والفردي، والقتل، والتَّعذيب، والاغتصاب، والتَّجويع، وحرق الأراضي والمحاصيل.. إلخ. قامت أيضًا بتفجيرات نووية غير محصنة في الصَّحراء الجزائرية، تسببت في كوارث بشرية وبيئية تمتدُّ آثارها لآلاف السنين.

سجل التاريخ اعترافات أدلى بها الكثير من الجنرالات الفرنسيين تؤكد فظاعة تلك الجرائم، مثل تصريح الجنرال «شانقارني» بشأن جرائم الإبادة التي ارتكبت ضد سكان «مَتِّيجة» في عام 1830، الذي قال: «**ظهرت وحشية الغزو**

يُعد الاحتلال الفرنسي للجزائر من أطول وأبشع أنواع الاحتلال في العصر الحديث (1830-1962). ارتكبت أثناءه القوات الفرنسية أفظع أنواع الجرائم ضد الإنسان والبيئة

* كادر جزائري. باحثة وروائية حاصلة على درجة الدكتوراة في القانون الدولي الإنساني.

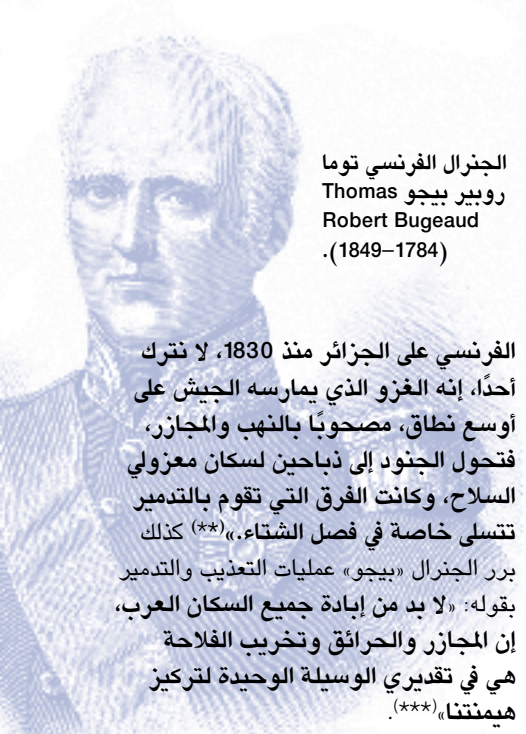

الجنرال الفرنسي توما روبير بيجو Thomas Robert Bugeaud (1784–1849).

الفرنسي على الجزائر منذ 1830، لا نترك أحدًا، إنه الغزو الذي يمارسه الجيش على أوسع نطاق، مصحوبًا بالنهب والمجازر، فتحول الجنود إلى ذباحين لسكان معزولي السلاح، وكانت الفرق التي تقوم بالتدمير تتسلى خاصة في فصل الشتاء.»(**) كذلك برر الجنرال «بيجو» عمليات التعذيب والتدمير بقوله: «**لا بد من إبادة جميع السكان العرب، إن المجازر والحرائق وتخريب الفلاحة هي في تقديري الوسيلة الوحيدة لتركيز هيمنتنا**»(***).

لم تتوقف المقاومة الشعبية المسلحة منذ الوهلة الأولى للاحتلال، وتكبَّد الجزائريون خسائر بشرية ومادية كبيرة.

جاء الاستقلال بقيام ثورة التحرير الكبرى (1954–1962)، التي نالت بها الجزائر لقب «بلد المليون ونصف المليون شهيد». لكن عدد الضحايا والشهداء يفوق واقعيًّا هذا الرقم بأضعاف.

مضى أكثر من نصف قرن على زوال الاحتلال الفرنسي للجزائر، ولا ولا تزال

فضيلة ملهاق*

شهد تاريخ البشرية الحديث نزاعات مسلحة في غاية العنف والوحشية، نتج عنها ذاكرة معقدة، وتداعيات على العلاقات بين أطرافها، مثلما هو حال العلاقات الجزائرية الفرنسية، بعد استقلال الجزائر عن فرنسا.

في تداعياته تلقي بظلالها على العلاقات بين البلدين، قال ذلك المؤرخ بنيامين ستورا: «**إن التَّاريخ يجمع بين الجزائريين والفرنسيين، لكن الذَّاكرة تفرقهم**».

لا يسهل قلب الصَّفحة ولا تصفُّحها كماض!

ثمَّة جراح لم تلتئم بعد وأخرى تستمر في النَّزيف، بل ومفتوحة على آلام متفاقمة، بسبب مسائل الذاكرة غير المحسومة بين البلدين.

تتمسك الجزائر بضرورة اتخاذ فرنسا خطوات سياسية وقانونية من أجل إنصاف الذاكرة والتاريخ، بينما ترفض فرنسا ذلك، بذريعة أن عمل الذاكرة من اختصاص المؤرخين، وتحاول التقليل من حجم جرائمها المرتكبة ضد الجزائريين أثناء الاحتلال. تتمثل مسائل الذاكرة المشتركة بين الجزائر وفرنسا عمومًا في نقطتين أساسيتين:

أولًا– رفض فرنسا الاعتراف بجرائمها والاعتذار عنها

ثانيًا– عدم تسوية ملفات الذاكرة العالقة بين البلدين

أولًا– رفض فرنسا الاعتراف بجرائمها

تتمسك الجزائر بمطلب اعتراف فرنسا بجرائمها إبان احتلالها لها والاعتذار عنها، فيما يرفض الطرف الفرنسي ذلك، رغم بعض الخطوات والتصريحات السياسية التي يطلقها بين الحين والآخر. وقد صرح الرئيس فرنسوا ميتران في تشرين الثاني/نوفمبر 1981، لدى زيارة رسمية إلى الجزائر، أن: «فرنسا والجزائر قادرتان على التغلب على خلافات الماضي وتجاوزها». ووقع الرئيس جاك شيراك في مارس 2003، في الجزائر العاصمة، مع الرئيس عبد العزيز بوتفليقة «إعلان الجزائر»، الذي نصَّ على «شراكة استثنائية» من أجل تجاوز «ماض لا يزال مؤلمًا... ينبغي عدم نسيانه أو إنكاره». لكن بعدها صدر قانون حول «الدور الإيجابي للاستعمار» بتاريخ شباط/فبراير 2005، واعتبر الرئيس الجزائري حينها عبد العزيز بوتفليقة أن هذا القانون يكشف عن «عمى عقلي يكاد يصل إلى الإنكار وتحريف التاريخ». ورغم إلغاء القسم المثير للجدل من هذا القانون بعد عام من صدوره، لا سيما المادة 4 منه التي تُعتبر تمجيدًا للاستعمار، استمرت تبعاته السياسية على العلاقات السياسية بين البلدين.

وقد ندد الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي في نهاية 2007، أثناء زيارته إلى الجزائر، بالنظام الاستعماري من دون أن يعتذر ودعا الجزائر إلى «التطلع إلى المستقبل». وكذلك صرح الرئيس فرنسوا هولاند، في نهاية 2012، بـ«المعاناة التي ألحقها الاستعمار الفرنسي بالشعب الجزائري».

اتفق الطرفان الجزائري والفرنسي في سنة 2020 على اتخاذ خطوة من أجل تسوية ملف الذاكرة، وكُلِّف كل من المستشار برئاسة الجمهورية الجزائرية عبد المجيد شيخي، والمؤرخ الفرنسي بنيامين ستورا بتقديم اقتراحات بهذا الشأن، فرفع بنيامين ستورا تقريرًا إلى الرئيس إيمانويل ماكرون يوصي فيه باتخاذ خطوات رمزية تجاه الذاكرة الجزائرية من دون الاعتذار.

جاء عقب ذلك بيان الرئاسة الفرنسية الصادر في كانون الثاني/يناير 2021 أن: «**فرنسا مستعدة لتقديم خطوات رمزية لمعالجة ملف استعمار وحرب الجزائر، لكنها لن تعبر عن أي ندم أو اعتذار**».

وقد لقي تقرير بنيامين ستورا رفضًا من جهات عدة جزائرية قالت إنه «**يساوي بين الضحية والجلاد**»، ووصفته بغير الموضوعي. قال مستشار رئيس الجمهورية عبد الحميد شيخي أمام وسائل إعلام محلية إن ذلك «**التقرير مشكلة فرنسية – فرنسية، لا يعني الجزائر في شيء**». وفي ظل تجاهل الطرف الفرنسي لحقوق الضحايا الجزائريين، كرم الرئيس ماكرون مؤخرًا «الحركى»، وهم جزائريون حاربوا إلى جانب الاستعمار الفرنسي خلال حرب التحرير الجزائرية (1954–1962)، وأعلن عن صدور قانون «الاعتراف والتعويض» الخاص بهم، وهو ما أثار الجدل حول إرادته في تصفية ملفات الذاكرة المشتركة، خاصة مع حساسية الموضوع بالنسبة للجزائريين، الذين يعتبرونهم أحد أسباب معاناتهم أثناء الاحتلال. و«الحركى» وصف أطلقه الجزائريون على العملاء الذين حاربوا في صفوف الجيش الفرنسي ضد الثورة التحريرية، وقد غادر الكثيرون منهم •••

جزائريون محتجزون في معسكر اعتقال فرنسي في خمسينيات القرن الماضي (الصورة ملونة رقميًّا حديثًا)

ICRC

تتمسك الجزائر بمطلب اعتراف فرنسا بجرائمها إبان احتلالها لها والاعتذار عنها، فيما يرفض الطرف الفرنسي ذلك، رغم بعض الخطوات والتصريحات السياسية التي يطلقها بين الحين والآخر

الصورة الأولى: داخل معسكر اعتقال فرنسي في الخمسينيات.
الصورة الثانية: للتفجير النووي الفرنسي في صحراء الجزائر عام 1960

ICRC

ICRC

تخفي الجماجم المحتجزة بمعارض فرنسا قصصًا عن وحشية الاستعمار الذي أعدم مقاومين بدل معاملتهم كأسرى حرب

نُفذ أول تفجير نووي في منطقة «رقان»، جنوب الجزائر، في 1960، بإشراف مباشر من الرئيس الفرنسي شارل ديغول، وأطلق عليها اسم عملية «اليربوع الأزرق»

غداة الاستقلال مع الجيش الفرنسي. إنهم يشكلون اليوم مع عائلاتهم ورقة انتخابية مهمة للسياسيين الفرنسيين بمختلف توجهاتهم.

وجرائم الاحتلال الفرنسي للجزائر ثابتة بالشواهد التاريخية والوثائق الدولية، وراسخة في ذاكرة الأفراد والجماعات المتوارثة، وتُعد من المسلمات التاريخية، ومثلها كفاح الشعب الجزائري وتضحياته بالنَّفس والنفيس. والجزائر، سلطة وشعبًا، في غنى عن اعتراف الطرف الفرنسي لإثبات أمجادها التاريخية، أو إدانته أمام الضمير الإنساني. لكن يبقى لذلك «الاعتراف» آثار معنوية وقانونية، ويدعم حق الضحايا الجزائريين في المطالبة بالتعويض، فارتكاب الدولة لفعل غير مشروع دوليًّا يترتب عليه مسؤوليتها الدولية، وهو أحد الجوانب الأساسية التي عملت الحكومات الفرنسية المتعاقبة على تجنُّبها. وينادي قانونيون جزائريون بضرورة اللجوء إلى العدالة الدولية من أجل متابعة فرنسا عن جرائمها أثناء احتلال الجزائر، كما تطالب جهات سياسية وأخرى من المجتمع المدني بتجريم الاستعمار الفرنسي على المستوى الداخلي.

عمليًّا، ينطوي اللجوء إلى القضاء الدولي على بعض التعقيدات، التي تعود في جانب منها إلى عدم انضمام فرنسا إلى بعض الاتفاقيات الدولية المتعلقة بتلك الجرائم، وإلى مجال تطبيق النظام الأساسي لروما من حيث الزمان، فهو لا ينطبق على الجرائم المرتكبة قبل بدء سريانه، وأيضًا يرتبط بانضمام الطرفين المتنازعين إلى اتفاقية روما. هذا دون إهمال عراقيل المطالبة بإنشاء «محاكم دولية خاصة» من أجل مقاضاة فرنسا أمام مجلس الأمن، لا سيما أنها تملك حق الفيتو. لكن ذلك لا ينفي إمكانية اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية والسياسية المتاحة على الصعيد الدولي، وكذا إيجاد حلول تشريعية داخلية تسمح بتوسيع اختصاص المحاكم الوطنية، وإزالة بعض العقبات الإجرائية التي يتطلَّبها اللجوء إلى القضاء الدولي.

ثانيًا– عدم تسوية ملفات الذاكرة العالقة بين البلدين

تتمثل هذه الملفات مبدئيًّا في: الأرشيف، لا سيما المتعلق بالحقبة العثمانية (1516–1830)، والتجارب النووية في الصحراء الجزائرية (1960–1966)، وجماجم أبطال المقاومة الشعبية (قبل ثورة التحرير الكبرى التي اندلعت في أول نوفمبر/ تشرين الثاني 1954)، وكذا ملف المفقودين.

الأرشيف: ذلك السرُّ المقبور ما وراء البحر

أعلنت الجزائر في عام 2017 أن فرنسا ما زالت تحتجز 98 بالمائة من أرشيف البلاد المهرَّب إلى فرنسا، وهي تطالب الجزائر باستعادة الأرشيف الذي نهبته فرنسا كاملًا، بما فيه الأرشيف الذي يعود إلى الحقبة العثمانية (1518 - 1830). وكان الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون قد سمح برفع السرية، لفائدة الباحثين الجامعيين، عن أرشيف كان مشمولًا بقانون سرية الدفاع الوطني، ومعه وثائق ومستندات فرنسية حول حرب التحرير الجزائرية التي أفضت إلى إنهاء الاستعمار الفرنسي. غير أن الكثير من الباحثين الجامعيين لم يجدوا في هذه الخطوة تسهيلًا لعملهم.

التجارب النووية: جريمة عابرة للزمان

قامت فرنسا بين عامي 1960 و1966 بتفجيرات نووية بالصحراء الجزائرية موزعة، حسب مسؤولين فرنسيين، على أربع تجارب فوق الأرض وثلاث عشرة تجربة في باطنها، بينما يقول مؤرخون ومسؤولون جزائريون إنها تفوق ذلك بكثير. نُفذ أول تفجير نووي في منطقة «رقان»، جنوب الجزائر، في 13 فبراير/شباط 1960، بإشراف مباشر من الرئيس الفرنسي شارل ديغول، وأطلق عليها اسم عملية «اليربوع الأزرق». استخدمت فيها أربع قنابل نووية بطاقة تفجير سبعين كيلوطن من «البلوتونيوم»، وبلغت شدة التفجير الذي أُجري على سطح الأرض أربعة أضعاف التفجير الناتج عن قنبلة هيروشيما. تلتها عمليات اليرابيع الثلاثة، الأبيض والأحمر والأخضر، وعمليات أخرى أجري بعضها بعد توقيع اتفاقيات إيفيان عام 1962، قبل استقلال الجزائر بأشهر، والتي تضمنت بنودًا تسمح لفرنسا باستعمال مواقع في الصحراء الجزائرية إلى غاية عام 1967. وقد تسببت عملية «اليربوع الأزرق» وحدها في قتل ما يزيد على اثنين وأربعين ألف جزائري، استعمل بعضهم مع جنود فرنسيين فئران تجارب.

ICRC

مندوب اللجنة الدولية للصليب الأحمر «بيير جيلارد» يزور معسكرًا فرنسيًّا لاعتقال الوطنيين الجزائريين في خمسينيات القرن الماضي

خلَّفت هذه العملية كوارث بشرية وبيئية. لا تزال المنطقة تعاني تلوث الجو بالإشعاعات النووية، وتلوث المياه، وتشوهات خلقية للمواليد الجدد، وتفشي الأمراض السرطانية وإعاقات...إلخ. كما أدت إلى انقراض أنواع من الحيوانات والنَّباتات. ولا تزال تلك التفجيرات تخلف ضحايا في مناطق الانفجار وضواحيها، ولكن حدود آثارها غير معروفة، فقد خلفت تلك العمليات سحبًا معبأة بالمواد المشعة انتقلت حتى جنوب أوروبا، وتوغلت في مناطق مجاورة للجزائر. تستمر هذه الإشعاعات التي خلفتها في الجو لآلاف السنين. وقائمة ضحايا التفجيرات النووية الفرنسية في الجزائر في ارتفاع، وهي عابرة للحدود والأزمنة، أمام صمت السلطات الفرنسية التي ترفض الكشف عن خبايا تلك التجارب، وتسليم خرائط دفن النفايات النووية، وكذا المعدات والأجهزة التي استخدمت في تنفيذ التفجيرات النووية.

وفي عام 2019، أصدرت فرنسا ما يُسمى بقانون «مورين» المتعلق بالاعتراف وتعويض ضحايا التجارب النووية الفرنسية بمستعمرات فرنسا السابقة، وتلاه القرار الذي يحدد كيفيات تطبيقه. هذا النص القانوني لا يشمل عمليًّا كل ضحايا التفجيرات النووية، من العسكريين والمدنيين الذين كانوا موجودين في المنطقة، ويقصي الجزائريين من التعويضات، وقد رُفضت الملفات الجزائرية بحجة أن الأمراض المصرح بها لا تندرج في إطار النص المذكور، ففرنسا لا تعترف أصلًا بقيامها بهذه التجارب في مناطق آهلة بالسكان في الجزائر.

عندما يكون للوحشية معرض فني!

كشفت وسائل إعلام فرنسية في 2016 وجود ثمانية عشر ألف جمجمة في «متحف الإنسان» بباريس، يعود مبدئيًّا أكثر من خمسمائة منها إلى جزائريين. تخفي الجماجم المحتجزة بمعارض فرنسا قصصًا عن وحشية الاستعمار الذي أعدم مقاومين بدل معاملتهم كأسرى حرب، وعلق رؤوسهم بعد قطعها في مداخل القرى لترهيب باقي السكان حتى لا يأخذوا طريق المقاومة. وقد استعادت الجزائر في 3 تموز/ يوليو 2020 أربعًا وعشرين رفات تعود لقادة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، بعد قرن وسبعين سنة من احتجازها بـ«متحف الإنسان» في باريس.

اعتبرت الجزائر ذلك خطوة رمزية بسيطة، وفي السياق ذاته أجاب الرئيس الجزائري عبد المجيد تبون في حوار مع قناة «فرانس 24» عن سؤال حول المطالبة باعتذارات فرنسية، قائلًا: «سبق أن وصلتنا أنصاف اعتذارات». تذكر مصادر تاريخية جزائرية أن جماجم هؤلاء المقاومين نقلت إلى باريس بغرض إخضاعها لبحوث وتجارب معملية.

المفقودون: الحقيقة الضائعة والآلام المتفاقمة

يشكل ملف المفقودين أثناء ثورة التحرير الجزائرية أحد ملفات الذاكرة العالقة بين الجزائر وفرنسا. قامت فرنسا بالكشف مؤخرًا عن مصير بعض الشخصيات المفقودة، لكن الجهات الجزائرية تعتبرها خطوة رمزية أمام كم المفقودين الذين تتكتم فرنسا على مصيرهم. في هذا الصدد، اعترف الرئيس ماكرون بتصفية الجيش الفرنسي للمناضل الجزائري علي بومنجل عام 1957، وأقرَّ أن: «**بلاده بحاجة إلى مصالحة مع ذاتها في تناول الماضي الاستعماري**». يتجلى مما سبق ذكره ثقل ملفات الذاكرة العالقة بين الجزائر وفرنسا، وعمق الجرح الجزائري الذي يستمر في النزيف، وتتفاقم آلامه مع مرور الوقت.

لكن مهما امتدت أنياب الذاكرة، يبقى للحاضر منطقه، الذي يؤكد أهمية العلاقات الجزائرية الفرنسية، بحكم عوامل جغرافية، وسياسية، واقتصادية، وثقافية.. وتاريخية أيضًا، ويستدعي ضرورة استقرار هذه العلاقات وتدعيمها بأواصر الثِّقة والاحترام المتبادلين، لا سيما بتصفية ملفات الذاكرة العالقة بين البلدين، والحرص على عدم انتقالها ملغمة إلى الأجيال القادمة. تجدر الإشارة إلى أن هناك جهات تراهن على اختفاء الأجيال التي شاركت في الحرب من الجانبين، ترى أن ذلك سيسهل عملية تصفية هذه الملفات. هذا الرأي يغفل جانبًا هامًّا في الموضوع، هو خطر تفاقم جراح الذاكرة، في حال انتقالها إلى الأجيال القادمة بواقع يؤصِّل للشعور بالظلم.

ما تدَّخره أحاسيس شعب قد تترجمه يومًا إرادة سلطة، ولو بعد أجيال ■

(★★) B.Cheikh, D.Mohamed, l'Algérie coloniale par les textes, 1830–1939, Editions Hammouda, Alger, 2003, p35.

(★★★) بزيان سعدي، جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال بيجو إلى الجنرال أوساريس، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 22.

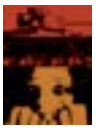

ذاكرة اللجنة الدولية شاهدة

محطات مضيئة للعمل الإنساني في حرب تحرير الجزائر

ليندة بوعلي*

نحن على أبواب الاحتفال بالذكرى الستين لاستقلال الجزائر، وهو حدث يلقي الضوء على محطات مهمة من التجربة الإنسانية التي يحتفظ بها تاريخ الثورة الجزائرية. وكما يقول فرانسوا بنيون (François Bugnion)، الخبير في القانون الدولي الإنساني والمؤرخ في اللجنة الدولية للصليب الأحمر: «إبراز التاريخ والعودة إليه لا يتعلق بالتعامل مع الماضي، بل هو خدمة للحاضر والاستعداد للمستقبل».

ويجهل كثيرون تجربة العمل الإنساني الملهمة التي جرت خلال السبع سنوات من حرب التحرير الوطنية في الجزائر. ولكي نتحدث عن هذه الذاكرة الإنسانية يجدر بنا العودة إلى أرشيف اللجنة الدولية الذي يحوي أكثر من ثلاثين ألف وثيقة وصورة سبق أن نشرتها اللجنة الدولية وأصبحت متاحة بعد انقضاء خمسين عامًا على صدورها.

وتشمل تقارير عن زيارات لأماكن الاحتجاز في الجزائر، ومراسلات رسمية مع أطراف النزاع، ووثائق خاصة بإنشاء الهلال الأحمر الجزائري ومساعدة اللاجئين الجزائريين في تونس والمغرب أو النازحين داخليًا. كما نجد وثائق لزيارة اللجنة للأسرى الفرنسيين الذين احتجزتهم جبهة التحرير الوطني.

تحوي هذه الوثائق والصور قصصًا ووقائع من داخل السجون وخارجها، ونداءات من عائلات للعثور على ذويهم أو مطالب لتحسين ظروف المحتجزين. من الملفات التي أثارت اهتمامي: ملفات لمتابعات شخصية للمحتجزين، منهم شخصيات معروفة كالسيدة جميلة بوحيرد. إن عائلتها ومحاميها كانوا على اتصال متواصل مع اللجنة الدولية من أجل تحسين ظروف احتجازها. وهناك تقرير عن زيارة مندوبي اللجنة لقادة جبهة التحرير الوطني في سجن «la santé» بفرنسا منهم الرؤساء السابقون للجزائر أحمد بن بلا ومحمد بوضياف، علاوة على حسين آيت أحمد (1926 – 2015)، أحد قادة الثورة الجزائرية.

كما نجد أيضًا ملف المساعدات الإنسانية التي قُدمت من بلاد شتى في الشرق والغرب، من الأمريكتين وآسيا وأوروبا، إثر «نداء عاجل إلى العالم» لمد يد العون للاجئين الجزائريين في تونس والمغرب خلال المؤتمر الدولي التاسع عشر للصليب والهلال الأحمر الذي عقد في نيودلهي من 28 تشرين الأول/أكتوبر حتى السابع من تشرين الثاني/نوفمبر1957.

وهناك وثائق تفصل المساعدات المقدمة في إطار حالات الطوارئ على السكان النازحين داخليًا الذين بلغ عددهم أكثر من مليوني نازح، أغلبهم من النساء والأطفال، ينتشرون بين حوالي ألفي مركز للنازحين في عام 1962. هذا العدد يمثل ربع سكان الجزائر آنذاك.

هناك اسم استوقفني في هذا الكم الهائل من الرسائل والتقارير التي أرسلتها إلى اللجنة الدولية آنذاك هو الدكتور بن تامي، ممثل الهلال الأحمر الجزائري بجنيف. فعلى الرغم من عدم اعتراف اللجنة الدولية بنشأة الهلال الأحمر الجزائري لأنها لا تستوفي الشرط الذي يقضي بأن تمارس الجمعية الوطنية المعنية نشاطها على أرض دولة مستقلة تسري عليها أحكام اتفاقيات جنيف، فإن اللجنة الدولية أقامت علاقة عمل في ما يخص تنفيذ المهام الإنسانية.

كانت الزيارات لأماكن الاحتجاز وإجراء مقابلات على انفراد مع المحتجزين حجر الزاوية في جهود عمل اللجنة. فقد اضطلع المندوبون من العام 1955 إلى غاية الاستقلال في العام 1962 بعشر مهمات، تفقدوا خلالها 490 مركز احتجاز بالجزائر و96 بفرنسا. وترتب على كل زيارة مراسلات مع السلطات الفرنسية بغرض وضع قائمة بأسماء الأماكن التي ينوون زيارتها والإجراءات ذات الصلة بتنقلاتهم. وفور وصولهم إلى مركز الاحتجاز – سواء كان معسكرًا للاحتجاز أو سجنًا – يلتقي المندوبون مع القائد وبعدئذ يزورون المرافق: الزنازين والمطابخ والمرافق الصحية وزنازين الحبس الانفرادي، إلخ. ويجرون مقابلات على انفراد مع من يختارونهم من المحتجزين. كانت المقابلات تمثل النقطة المحورية للزيارة، لأن هذه المرحلة هي التي كانت تمكنهم من جمع

استغرق إنتاج الفيلم أكثر من ثلاث سنوات تمكنَّا من خلاله من إجراء حوار مع بعض الشخصيات التي كانت شاهدة على هذه الفترة. كانت رحلة البحث عن الشهود كسباق مع الزمن

في تموز/ يوليو المقبل، يحتفل الجزائريون والعرب والعالم بمرور ستين عامًا على تحرير البلاد من نير الاستعمار. تجربة استقلال الجزائر، تجربة ملهمة، وهي حية ليس في ذاكرة الجزائريين فقط، وإنما في ذاكرة العمل الإنساني أيضًا.

* مسؤولة الاتصال باللجنة الدولية للصليب الأحمر بالجزائر

المعلومات حول معاملة المحتجزين، والتأكد من الحالة الصحية وذلك بمشاركة أطباء اللجنة الدولية. في نهاية الزيارة، يضع المندوبون تقارير مفصلة بما خرجوا من ملاحظات وتوصيات إلى السلطات لاتخاذ إجراءات لتحسين مصير المحتجزين. علاوة على ذلك، يرسل المندوبون بعد الزيارة إمدادات إغاثة إلى المحتجزين وفق احتياجاتهم التي جرى تحديدها. من بين المراكز التي زارها المندوبون: مركز الإيواء برواقية، مركز الإيواء بالجرف، مركز الفرز والعبور ببئر العاتر، قصر الطير، مزرعة الإنجلي.

توثيق الذاكرة سينمائيًّا

أمام هذا الكم الهائل من الوثائق الثمينة، والعمل التاريخي لفرانسوا بنيون حول هذا الملف، توجب علينا نفض الغبار عن هذه الوثائق التي تحتوي على أجزاء مهمة من ذاكرة الأشخاص والأمة، منهم شخصيات معروفة، وآخرون أصبحوا شاهدين على هذه المحطة التاريخية الخاصة بالعمل الإنساني إبان حرب التحرير.

يقول بنيون «على اللجنة الدولية الاهتمام بتاريخها. نعمل في جميع أنحاء العالم في وسط سكان يعانون من صدمات ماضيهم، صدمات تنتج عن الحرب. الحرب لديها جذورها في الماضي وتشكل المستقبل للأفضل، وفي غالب الأحيان للأسوأ».

لهذا عملت اللجنة الدولية مع المخرج الجزائري السعيد عولمي لإنتاج فيلم عن الجهود الإنسانية التي رافقت حرب التحرير الجزائرية. يشتهر هذا المخرج بعدة أفلام وثائقية عن هذه الحقبة التاريخية، إذ اعتمد في عدد من أعماله السابقة على سجلات اللجنة الدولية، بعد إتاحتها للجمهور، لإخراج أفلام تحكي تاريخ الجزائر مثل سلسلة «في المعتقلات إبان الثورة».

في فيلمه الجديد «الإنسانية في قلب حرب التحرير الجزائرية»، يعطي عولمي الكلمة للشهود على هذه الحقبة التاريخية. وُفِّقَ في تأريخ هذه الفترة من خلال التوظيف الأمثل لسجلات المعتقلين الموثقين في أرشيف اللجنة الدولية. وقد ترجم ذلك إلى سلسلة من المقابلات الصحفية المفعمة بصدق مشاعر الجزائريين الذين ساهموا بقسط كبير في خلق وتيرة سلسلة وحبكة ممنهجة.

في الشريط الوثائقي الذي جرى من خلاله استقراء الكثير من وثائق أرشيف اللجنة الدولية في أسلوب فني مشوق يبعث اللقطة المصورة بمؤثرات صوتية وتناسق جمالي يسمح بتتبع مجريات الفيلم إلى نهايته. يشرح لنا هذا الفيلم آثار حرب التحرير في تطوير القانون الدولي الإنساني لاحقًا. ذلك القانون الذي يتألف من مجموعة من القواعد تهدف إلى الحد من الآثار السلبية للنزاعات المسلحة.

استغرق إنتاج الفيلم أكثر من ثلاث سنوات تمكنًا من خلاله من إجراء حوار مع بعض الشخصيات التي كانت شاهدة على هذه الفترة. كانت رحلة البحث عن الشهود كسباق مع الزمن. ومن بين هؤلاء يبرز اسم «بيير غيار» مندوب اللجنة الدولية بالجزائر في أثناء حرب التحرير الذي وافته المنية بعد تصوير الفيلم بقليل.

ويشيد الفيلم أيضًا بعمل الدبلوماسيين والسياسيين الذين تفاوضوا لإيجاد حل دبلوماسي للنزاع، ومن بينهم رضا مالك المتحدث باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية إبان إبرام «اتفاقات إيفيان»، الذي وافته المنية أيضًا بعد الانتهاء من إخراج الفيلم في العام 2017. معظم الشهود الذين ظهروا في الفيلم وافتهم المنية كالدكتور حميدو وليلى مكي وقروج ولمين بشيشي.

وبعد مجهود كبير، خرج الفيلم للعلن، وجرى بثه في التلفزة العمومية الجزائرية وفي قاعات سينما ابن خلدون بالعاصمة وفي بجاية وقاعات أخرى في مؤسسات حكومية وجامعية ■

يمكنكم الاطلاع على العديد من الوثائق العامة مثل الصور والأفلام على البوابة الإلكترونية لأرشيف صور اللجنة الدولية في هذا الرابط: https://avarchives.icrc.org/

جدير بالذكر أن هناك نسخة من أرشيف اللجنة الدولية موجودة في المديرية العامة للأرشيف الوطني الجزائري، وهو متاح للجمهور.

ICRC

ICRC

ICRC

المناضلة الجزائرية والناشطة النسائية الراحلة ليلى مكي قبيل مع رئيسة بعثة اللجنة الدولية في الجزائر كاثرين جوندر

أمير تاج السر*

بلد ينهض من حرب ليواجه أخرى

النزاع غائر في ذاكرة السودان

AFP

AFP

كان السودان وما يزال على الرغم من دعاوى السلام الكثيرة، والمؤتمرات التي تعقد هنا وهناك للم الشمل، وعدم تشتيته في نزاعات لا تجدي، مرتعًا للحروب، الكبيرة والصغيرة على حدٍّ سواء، تلك التي تنشأ بين قبيلتين، وبين قبائل عدة، وبين منشقين عن الوطن، ضد الوطن. وأظن أن السودان من الدول التي يمكن تصنيفها دولة «مُحربة»، أو أريد لها أن تظل هكذا تنهض من حرب، لتواجه حربًا أخرى.

إذا عدت بذاكرتي لتلك المرحلة التي عاصرتها إلى حدٍّ ما، أي مرحلة الحرب الأهلية في السودان (1983–2005)، لعثرت على ملايين اليتامى، وآلاف القتلى والجرحى المشوهين. وما زلت أذكر أشخاصًا من أقاربي أو معارفي، تاهوا في ذلك الظلام، وتركوا خلفهم الصرخات والعويل.

أذكر الطيار رضوان الذي كان عسكريًّا فذًّا، ومات بلا أي معنى وفي مكان كان من المفترض ألا يكون فيه أصلًا. كان في السادسة والثلاثين، أذكر الصادق، الذي ذُبح في الليل وهو نائم، وحامد الذي كان بمثابة العم. ذلك إضافة إلى المشوهين الذي كادوا أن يضيعوا بألغام زرعت أصلًا لضياعهم، وشاء حسن الحظ أن يفقدوا أطرافًا فقط، ويعودوا إلى بيوتهم لكن بمعنويات محطمة من جراء ما تبثه ذاكرتهم عن حوادث تلك الأيام التي عاشوها.

الحرب في غرب السودان، وتلك أيضًا معضلة كبرى أمسكت بآمال الوطن ردحًا من الزمان، وخنقتها، الناس هناك يتحاربون منذ الأزل، يتحاربون بسبب وبغير سبب، الأرض واسعة والمراعي كثيرة، والأمطار تأتي، لكن القبائل تتحارب، ثم ليتسع نطاق الحرب بعد ذلك، ويصبح فعلًا همجيًّا، هناك من يبحث عن السلطة أيضًا، ويستطيع استخدام القبلية والجهوية، والمعاني المغمورة في اللغات المحلية، لإشعال الحرب، ومثل ما حدث في الجنوب، حدث في الغرب، وتكونت بناء على ذلك جماعات كل منها يتزعمه رسول حرب. وهؤلاء دخلوا القرى والمدن، وأنهكوا الاقتصاد القومي، وعلى الرغم من عدالة مطالب كثير من المتحاربين، فإن الشَّرار كان طائشًا. وطالت مأساة الحرب أشخاصًا لا علاقة لهم بأي سلطة، بل في الحقيقة ضحايا أيضًا للسلطة. تقول تلك الجماعات إنها تريد أن تقتص للناس، لكن في الحقيقة هي أضاعت الناس بإضاعة استقرارهم.

* كاتب وروائي سوداني، صدر له «صائد اليرقات»، و«توترات القبطي»، و«العطر الفرنسي».

على الرغم من عدالة مطالب كثير من المتحاربين، فإن الشرار كان طائشًا، وطالت مأساة الحرب أشخاصًا لا علاقة لهم بأي سلطة

اللجوء من أشد عذابات الحروب وطأة، إنه باختصار انتقال من الجحيم المعروف إلى الجحيم غير المعروف

ماذا يتبقى من الحرب؟

لنسأل واحدًا هو المقدم فضل اللَّه، الذي عمل معي في شرق السودان، حين كنت مفتشًا طبيًّا، وكان قائدًا لحرس الحدود، عن تجربته حين كان في الحرب؟

فضل اللَّه لم يكن بحاجة لسؤال، وطوال سنة قضيناها معًا في الحدود السودانية الإريترية، لم يكن له حديث غير الحديث عن الحرب وما تركته فيه من أحلام مزعجة، وذكريات لا ينبغي أن تعود، هو دائمًا يتحدث عن زملاء ذُبحوا أو قُتلوا بالرصاص أو تمزقوا أشلاء بسبب ألغام لم ينتبهوا لوجودها، يتحدث عن قرى دخلوها في الجنوب، وفوجئوا بنساء يحملن الحراب ومستعدات لغرسها في قلوبهم، عن عربات مدرعة، سقطت في الفخاخ ومات أصحابها، عن جثث كثيرة متعفنة، ومشوهين كثيرين جدًّا، بلا حياة تقريبًا. وتحدث مرة عن واحدة اسمها سوشيلا، جنوبية حسناء كما يصفها، كان يتحدث معها حديثًا هامسًا في إحدى القرى، حين أصابها أحد الجنود برصاصة وأسقطها، بزعم أنها من الخونة.

لن أغفل مسألة اللاجئين، وهي من مضاعفات الحروب التي لا تخمد أبدًا، وشخصيًّا وثقت لتلك المسألة في روايات عدة، منها رواية «منتجع الساحرات» التي تحكي عن لجوء الإريترية الجميلة أبيا تسفاي إلى مدينة بورتسودان لتُقتل هناك.

اللجوء من أشد عذابات الحروب وطأة، إنه باختصار انتقال من الجحيم المعروف إلى الجحيم غير المعروف، فاللاجئ الذي يترك بلده المشتعل، يبحث في العادة عن الأمان، عن الرحمة، عن بداية جديدة، لحياة جديدة، لكن ذلك في الغالب لا يحدث. هي عذابات تُحمل مع المرء أينما ذهب، ومجهول في الغالب له سيوفه وسكاكينه التي سيشهرها في وجه اللاجئ.

أنا سآخذ أبيا تسفاي نموذجًا، وهي في الحقيقة نموذج أخاذ لمعنى الضياع الذي تعممه الحرب على الأبرياء، هذه الفتاة الجميلة كانت بالقطع تعيش ماضيًا حتى لو كان بائسًا وجائعًا، لكنه مستقر، الحرب اندلعت في بلادها. أبيا عملت في بورتسودان بائعة للشاي، بائعة فقيرة لكن تملك معاني جيدة عن الشرف، والبقاء بلا ندوب أخرى غير ندوب الأسى التي أحدثتها الحرب، لكن مثل هذا الجمال في بلاد غريبة، ووسط أفاعٍ وجرذان وأشخاص بلا هوية معروفة، وربما لصوص وقتلة، جعل منها فتنة تصنع الشاي، ثم ليطعنها عاشقها عبد الكريم بخنجر حاد وينتهي الأمر، أنا كنت أعمل في المستشفى حين جاءوا بها، كانت بيضاء مثل الورقة، كانت بلا نقطة دم واحدة ولم نستطع أن نفعل شيئًا، فقد شهقت شهقتها الأخيرة ونحن نركض بها إلى غرفة العمليات.

نماذج كثيرة لما تركته الحروب في سمائنا

نحن السودانيين، كثيرة جدًّا، وقد جرت على مر السنوات، محاولات عديدة، لتعويد ذلك الشعب المتباين السحنات واللهجات والأهواء، على حب الوطن، وعدم إراقة دم الوطن، والسعي لرفعة الوطن، لكن دائمًا ثمة ردة إلى الحرب.

مؤخرًا جرت محاولات جادة فعلًا لإلغاء مفهوم الحرب عن ذاكرة الناس، لإلغاء بطشها وتهاونها في أمان المواطنين، وذلك بدعوة زعمائها إلى سلام كبير، خاصة أن كل من كان يحمل سلاحًا، يقول بأنه يحارب النظام [الذي حكم السودان زمنًا] وكنسته ثورة الشباب، الآن يبدو ثمة سلام، وشبح تنمية يلوح في الأفق، وربما تنكسر تلك الحدة القديمة للمزاج الناري، مزاج الحرب، إلى الأبد، لكن حتى لو نجح ذلك المسعى تماما، وأصبحنا خالي الوفاض من الحرب ونارها، هل تُمحى تلك المشاهد التي رسخت بعنف في الذاكرة؟ هل ينسى المقدم فضل اللَّه مثلًا، رفاقه القدامى، والألغام، والخناجر التي ذبحت أحبة؟ هل تعود أبيا من منفى الموت، إلى رونق الحياة، وهل سيصحو عمي حامد من غيبوبة الحرب المقدسة التي مات بسببها، إن عاد مرة أخرى؟

لا أعتقد، نحن أصحاب ثارات مع الحرب، ولن تخمد تلك الثارات ■

عن المفقودين في الشرق الأوسط
مقيمون في الذاكرة

بسنت عبد المجيد*

ولدنا ونشأنا في منطقة عانت مرارًا جراء النزاعات وغيرها من الأزمات الإنسانية على مدار عقود، وشهدنا عددًا من هذه النزاعات والأزمات – التي تتضمن حالات العنف الأخرى والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تؤدي إلى زيادة الهجرة غير النظامية – التي تأثرت بها جميع دول المنطقة تقريبًا، حاليًّا أو في الماضي، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. لذا يتعين علينا وضع مثل هذه المبادرات في صدارة أولويات المنطقة كما نعلم كلنا أن الماضي بلا شك يؤثر على مستقبلنا وطريقة تعايشنا، كما أنه أيضًا يوجهنا من خلال التعلم من دروسه المستفادة حول كيفية الحد من هذا الحزن والألم وتجنبه في المستقبل.

أثار كل هذا العديد من الأسئلة المهمة الناشئة عن إدراكنا بأن احتمالية فقدان أي شخص يعيش في هذه المنطقة، أو يعمل في مناطق متضررة من النزاع، أو فقدان أحد أفراد عائلاتنا أو أصدقائنا، أعلى مما نتوقع. وتبقى الأسئلة التي تطاردني: هل يحظى هذا الموضوع بالاهتمام الذي يستحقه؟ هل نفعل ما يكفي لمنعه؟ هل يحمينا القانون في هذا الشأن؟ كيف نريد أن يحمينا القانون؟ هل هناك أي شيء بخلاف القانون قد نحتاجه لضمان هذه الحماية؟ هل تمتلك المنطقة ما يلزم – من المعرفة والخبرة والقدرة – للتصدي لهذه المأساة؟

قضية ملحة

قضية المفقودين – أي الأشخاص الذين لا يُعرف مصيرهم ومكان وجودهم – هي قضية عالمية وتزداد إلحاحًا في منطقتنا حيث يتزايد عدد الأشخاص المفقودين بشكل مستمر. وبشكل عام، فإن الأشخاص المفقودين هم إحدى تبعات حالات النزاع المسلح وحالات العنف الأخرى والكوارث الطبيعية والهجرة. وبالتالي، يختفي الأشخاص، على سبيل المثال لا الحصر، إما بسبب عدم قدرتهم على التواصل مع عائلاتهم بعد الفرار من الخطر، أو احتجازهم أو التحفظ عليهم دون إمكانية الوصول إلى وسائل الاتصال، أو تجنب المفقودين أو عائلاتهم البحث عن أحبائهم خوفًا من الأعمال الانتقامية من أطراف النزاع. وفي حالة الوفاة، وهو الاحتمال الأكبر لمصير المفقودين سواء أثناء الأزمات الإنسانية تلك أو في أعقابها، تظل الرفات إما مجهولة الهوية أو لا يمكن التعرف عليها أو لا يُعثر عليها أبدًا.

ومن المرجح أن تترك تلك الجثث أو تدفن في قبور مجهولة أو بطريقة، أو في موقع، يحط من كرامتها.

وفي كل الأحوال، تعاني عائلات المفقودين من آلام الابتعاد عن أحبائهم، وعدم القدرة على رؤيتهم، أو على الأقل معرفة مصيرهم، أيًّا كان. بل يعيشون في مفارقة يومية من الشعور بالذنب حول ما إذا كان عليهم التمسك بأدنى أمل في أن أحباءهم على قيد الحياة، ويفعلون أقصى ما في وسعهم للعثور

* مستشار قانوني في القسم الإقليمي للقانون الدولي الإنساني باللجنة الدولية للصليب الأحمر

ICRC

لا ينسى الناس أحبتهم المفقودين مطلقًا. فتحرص العائلات كل الحرص على ذكراهم. ولا يهم عدد السنوات التي تمر، ولا مقدار تعافي البلد من النزاع المسلح ونجاحه في إعادة إعمار بنيته التحتية وأنظمته، إذا لم تلقَ قضية الأشخاص المفقودين الاهتمام المناسب. تشكل قضية الأشخاص المفقودين صدعًا عميقًا، قد يمنع أي بلد من التعافي الكامل. وهنا تكمن ضرورة أن نولي ملف المفقودين وعائلاتهم مزيدًا من الاهتمام، من أجل حماية أنفسنا وأسرنا، ولمساعدة العائلات على معرفة مصير أحبتها، ولمصلحة مجتمعاتنا على نطاق أوسع، بتمكينها من التعافي والمضي قدمًا.

عليهم، أو التخلي عنهم وتقبل الاحتمال الأكبر بأنهم لن يعودوا أبدًا – ولكنه تقبل غير مُجدٍ، مع عدم وجود جثة الشخص لدفنها، ولا قبر لزيارته ولا مراسم لتلقي العزاء.

غيض من فيض

العراق: خلال زيارتي لسجن في بغداد، طلب مني مدير السجن، وقد تجاوز سن الخمسين، ملء طلب للبحث عن شقيقه الذي فقد الاتصال به منذ حرب الخليج الأولى في العام 1991 (نزاع سابق نتج عنه مئات الأشخاص المفقودين). وبمجرد وصولي إلى مكتبي، تبينت أنه وعائلته قد قدموا بالفعل أكثر من طلب للبحث عن شقيقهم المفقود. وها أنا، في ظل نزاع آخر في العراق، الذي يخلفه العديد من النزاعات وحالات العنف الأخرى. أكم من عائلات أخرى تعيش هذا الألم وهذه الحيرة.

ليبيا: استمرت مئات العائلات الليبية في إحضار الطعام والمال والملابس لأقربائهم في أحد السجون حتى عام 2011 ليكتشفوا أنهم قُتلوا منذ عام 1996. لم يكن لتلك العائلات أي دليل على بقاء أحبائهم على قيد الحياة ولا أي اتصال هاتفي معهم ولا حتى زيارتهم، ولكنهم كانوا متلهفين للاعتقاد بأن أقرباءهم كانوا على قيد الحياة وآمنين في أماكن الاحتجاز. حتى إنهم استمروا في إرسال الطعام والمال إليهم تحسبًا أن يحتاجوا إليه.

سورية: تلقينا طلبات للبحث عن مئات المفقودين من أطراف النزاع المختلفة، وكانت تضم عشرات الأطفال والنساء الذين فُقدوا خلال انفجار واحد أثناء تبادل بين الجماعات المسلحة من غير الدول والقوات الحكومية، ولم يكن من الممكن التعرف على الجثث بسبب الانفجار، كما نقلت فرق الطوارئ الجرحى إلى تركيا لتلقي العلاج من دون التعرف على هويتهم. تواصلت في ذلك الوقت مع إحدى المفقودات في تركيا وهي فتاة تبلغ من العمر 12 عامًا، كانت في حالة صدمة وقد انفصلت عن عائلتها وخضعت للعديد من العمليات الجراحية وحدها. ولحسن الحظ، تمكنا من لم شمل الفتاة بأسرتها، ولكن بالنسبة للعديد من الآخرين، سواء من هذا الحادث أو غيره الكثير، لا تزال العائلات ممزقة دون أي اتصال.

وما هذه القصص إلا غيض من فيض في بحر من ألم وعذاب لا نهاية لهما، عانت وما زالت تعاني منه المنطقة. الألم لا يزول، والعائلات لا تستسلم، ولا يمكن للعائلات أن تفقد الأمل بغض النظر عن أي مصاعب خارجية قد يواجهونها وهنا أطلب منكم التأمل للحظة في كل قصة من تلك القصص، والشعور بها عميقًا داخلكم، وتخيل حياة كل شخص مفقود وكل فرد من عائلته وما يشعرون به من يأس.

في منطقتنا، تتجلى أزمة الأشخاص المفقودين وعائلاتهم في كل مكان حولنا، ولكن يبدو أن الكثير منا يغض البصر عن ذلك الأمر، عن قصد أو عن غير قصد، حتى أصبح «تجاهلًا يوميًّا». فإذا أدركنا المشكلة وتوقفنا لحظة لنفكر فيما حولنا، فسنكتشف وجود المشكلة تلقائيًّا في كل مكان – وهو ما يُسمى تأثير بايدر ماينهوف.

وفي منطقتنا لا يتطلب الأمر منا إلا أن: إذا ننظر إلى الأشخاص من حولنا، نشاهد ونستمع ونقرأ الأخبار، ونطلع على مناهجنا التعليمية وغيرها، و نلاحظ/ننظر إلى النصب التذكارية «للجنود المجهولين» في العديد من الدول العربية، ونتذكر أسرى الحرب أو المحتجزين أو الجرحى الذين كانوا أو لا يزالون في عداد المفقودين طوال الحروب العديدة التي شهدتها المنطقة (على سبيل المثال الصراع العربي الإسرائيلي، وحرب الخليج الأولى، وحركات التحرير، والنزاعات المستمرة في اليمن وسوريا والعراق ودول غيرها) قد نرى حينئذ كثيرًا من اللاجئين أو طالبي اللجوء الذين فقدوا الاتصال بعائلاتهم، وعائلات فقدت الاتصال بأحبائها في رحلتهم للعثور على حياة أفضل وأكثر أمانًا، وأشخاص وُضعوا في المنفى دون إمكانية التواصل مع عائلاتهم، وعائلات فقدت الاتصال بأحبائهم عقب اعتقالهم أو اختطافهم، وضحايا لم يمكن التعرف على هوياتهم أو العثور عليهم في ظل الحرب، وكثير من الجثث مجهولة الهوية. والقائمة لا تنتهي.

ومع ذلك، من المهم أن نتذكر أن مأساة المفقودين وعائلاتهم موجودة في التاريخ العربي والإسلامي منذ زمن بعيد. وينعكس ذلك في التطور التاريخي التدريجي للقواعد والأعراف المتعلقة بالمفقودين وعائلاتهم المنصوص عليها في القوانين الدولية والوطنية وشريعتنا الإسلامية السمحاء.

مقيمون في الذاكرة

وكما هو واضح، استمر هذا الواقع المؤسف في العصر الحديث. وتتابع اللجنة الدولية وحدها حاليًّا أكثر من 145 ألف حالة مفقودين في جميع أنحاء العالم، معظمهم فقدوا في السنوات الأخيرة وتحديدًا من دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. على سبيل المثال، في عام 2018 فقط، تلقت اللجنة الدولية أكثر من 40 ألف طلب لحالات أشخاص مفقودين، مع وجود ثلاث دول من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا – هي العراق وسورية واليمن – من أصل الدول الخمس التي تلقت اللجنة الدولية منها أحدث حالات المفقودين.. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأرقام ليست سوى جزء صغير من إجمالي عدد الأشخاص الذين يُعتقد أنهم في عداد المفقودين.

وعليه، يتعين علينا اتخاذ المزيد من الخطوات الأكثر ملاءمة لمحاولة كسر الحلقة المفرغة ومنع التاريخ من تكرار نفسه. من وجهة نظري، هذا هو السبيل الوحيد لإحداث فرق في حياة عدد لا يُحصى من الأشخاص المفقودين وعائلاتهم الموجودين في الوقت الحاضر وفي المستقبل. علاوة على ذلك، هذه أفضل طريقة لإحياء ذكرى المفقودين الذين لم يُعثر عليهم والعائلات التي لم تحظَ بفرصة لمعرفة مصير أحبائهم على الإطلاق. ولكي يحدث ذلك، نحتاج كخطوة أولى إلى مراجعة الضمانات والتدابير الحالية المعمول بها من أجل تحديثها حسب الاقتضاء بهدف التصدي لهذه المشكلة المتزايدة في المنطقة بشكل أفضل لحمايتنا جميعًا. لذلك يجب علينا جميعًا التفكير في الإطار القانوني والممارسات التي من شأنها تنظيم مثل هذه الضمانات والتدابير ووضعها موضع التنفيذ ■

ICRC

الذكرى الخمسون بعد المائة

تحتفل اللجنة الدولية للصليب الأحمر العام 2021 بالذكرى السنوية الخمسين بعد المائة لإنشاء الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين. كما نحتفل بمرور عشر سنوات على إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم 30 آب/ أغسطس يومًا دوليًّا لضحايا الاختفاء القسري. وفي هذه المناسبة، نتوقف ونفكر مليًّا في الغرض من وراء هذه المبادرات، لا سيما في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وأهميتها وصلتها بحياتنا في الماضي والحاضر.

إعادة الروابط العائلية

عندما يصبح الشعور بالآخرين سابقًا على الشعور بالذات

على مدار أكثر من 10 سنوات من العمل في اللجنة الدولية، وخاصة في مجال إعادة الروابط العائلية، كانت رباب سمير شاهدةً على معاناة الانفصال بين أفراد العائلة الواحدة، إما بسبب كوارث طبيعية أو نزاعات عسكرية، أو نتيجةً لظروف اقتصادية خانقة. في هذا المقال تستعيد مواقف إنسانية شهدتها خلال تلك السنوات.

رباب سمير*

ما زلت أتذكر أول حالة تعاملت معها بعد استلامي العمل مباشرة في بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الكويت. كانت أمًّا مكلومة ترسل لي بين الحين والآخر عددًا من رسائل الصليب الأحمر المكتوبة بخط اليد والتي تحمل بين طياتها عبارات الشوق والحنين لابنها المحتجز في أحد السجون بعيدًا عن البلدة التي تعيش فيها عائلته. وفي كل مرة كانت تتواصل معي الأم هاتفيًّا لتستفسر عن وصول رسائل جديدة من الابن، كنت أستمتع بحديثها عن الصبر واليقين الذي ينمو بداخلها يومًا بعد يوم عن قرب عودة ابنها الغائب. كنت أنتظر معها بترقب وصول الرسائل من الابن المحتجز وكأنني واحدة من أفراد تلك الأسرة التي تتمنى أن يلتئم شملها في أقرب وقت. لكن الحياة لم تكن عادلة وشاءت ألا تجتمع العائلة مرة أخرى بسبب وفاة الابن في مكان الاحتجاز. وفي نفس يوم استلامي لخبر الوفاة، وصلتني رسالتان إحداهما كانت الرسالة الأخيرة من الابن والتي كتبها قبل وفاته مباشرة، يبشر فيها والدته بأنه يشعر بأن اللقاء بات وشيكًا وأنه مشتاق لرؤيتها. بينما الرسالة الأخرى كانت من الأم تحكي لولدها عن انتظار كل أفراد العائلة لعودته إليهم، وتخبره بتجهيز غرفة خاصة له في منزلها استعدادًا لاستقباله. كان تاريخ كتابة الرسالتين واحدًا. ربما كُتبتا في التوقيت نفسه، ولكن يشاء اللَّه أن قصاصة ورق صغيرة تصبح هي الحوار الأخير بين الأم وابنها. فعلى الرغم من أن ولدها كان غائبًا عن العين، لكنه كان حاضرًا في رسائل الصليب الأحمر.

لم تمر عليَّ هذه الحالة مرور الكرام، فقد مكثت شهورًا أفكر وأُعيد قراءة رسائلهما مرة أخرى وأسأل نفسي ماذا لو لم تتمكن هذه الأم

* موظفة إعادة الروابط العائلية
في بعثة اللجنة الدولية الإقليمية بالكويت

رؤية عناق أب لابنه أو لابنته بعد غياب سنوات هو المشهد الذي أتمنى أن أراه كل يوم

من مراسلة ولدها طيلة فترة احتجازه في بلد بعيد عنها؟

في اليوم نفسه، كانت الفرحة تغمر منزلًا آخر لإحدى العوائل التي تلقت خبر وجود ابنها على قيد الحياة بعد غياب دام أكثر من 20 عامًا، لم يفقد فيها الأب الأمل في معرفة مصير ابنه. لم يصدق الأب الخبر عندما حدثته هاتفيًا وأخبرته بأننا تمكنا من معرفة مكان الابن الذي كان يُعالج في أحد المستشفيات من مرض نفسي مما جعله غير قادر على التواصل مع ذويه طوال تلك الفترة. ذرف الأب الدموع بعد علمه بالخبر. قال لي: «**لم أتخيل يومًا أن في هذا العالم الذي نعيش فيه يوجد أشخاص جُل وظيفتهم في الحياة هي بذل الجهود للبحث عن مفقودين**».

التعامل عن قرب مع الأشخاص الذين يبحثون عن أحبائهم كان سببًا في أنني تعلمت الكثير ليس فقط على المستوى المهني ولكن على المستوى الشخصي أيضًا. فقد أصبح الشعور بالآخرين يسبق الشعور بالذات. فكل حالة بحث عن شخص مفقود، رسالة صليب أحمر، أو مكالمة هاتفية تعاملت معها خلال هذه السنوات كانت بمثابة تأكيد لي بأنه لا شيء يضاهي سعادة إعادة التواصل بين الأفراد وأحبائهم. وأن التعامل يوميًّا مع مثل هذه الحالات يقودنا إلى التعمق في ثقافة الشعور بالآخرين وبظروفهم وتلمس احتياجاتهم، بل تقودنا لرغبة جامحة بالاستمرار في هذا العمل.

السعادة التي أراها على وجوه الأشخاص الذين عثروا على أحبائهم بمساعدة عملنا نحن موظفي إعادة الروابط العائلية هي بمثابة شهادة نجاح لي. الابتسامة التي تعلو الوجوه عند وصول خبر أن أحد المفقودين ما يزال على قيد الحياة، هي وسام أتمنى أن يظل ثابتًا على صدري طيلة العمر، أما رؤية عناق أب لابنه أو لابنته بعد غياب سنوات فهو المشهد الذي أتمنى أن أراه كل يوم.

فالانخراط في العمل الإنساني يخلق بداخلنا نوعًا فريدًا من التقدير ومن دون أن نشعر، يصبح العمل الإنساني جزءًا لا يتجزأ من حياتنا لا يمكننا الفكاك منه ■

إعادة الروابط العائلية هي مجموعة من الأنشطة التي تهدف إلى استعادة قدرة أفراد العائلات على التواصل مع بعضهم بعضًا والحفاظ على هذا التواصل والحيلولة دون تشتت أفراد العائلات واختفائهم، وكذلك تحديد مصير وأماكن وجود الأشخاص الذين هم في عداد المفقودين. ويجري التعامل مع هذه الحالات باستخدام عدة وسائل من شأنها المساعدة في معرفة مصير الأشخاص مثل طلبات البحث ورسائل الصليب الأحمر وتسهيل إجراء المكالمات الهاتفية وغيرها العديد من الوسائل.

REUTERS

ذاكرة لصون الكرامة الإنسانية:

حدود للحرب وحدود للقانون

«حتى الحرب لها حدود»، عبارة قالها أحد مندوبي اللجنة الدولية للصليب الأحمر (اللجنة الدولية) منذ أكثر من 15 عامًا في إحدى الدورات التدريبية على القانون الدولي الإنساني التي خُصصت لمشاركة مجموعة من أرفع المدعين العامِّين في مصر. ولست متأكدًا ما إذا كان هذا المندوب على علم في ذلك الوقت بما قد يكون لهذه الكلمات الأربع البسيطة من أثر على مستمعيه، إلا أن ما أنا على يقين منه اليوم هو أن تلك الكلمات كان لها أبلغ الأثر في حياتي.

في ظل النزر اليسير من المعرفة بالقانون الدولي الإنساني التي حصَّلناها في كليات الحقوق، أذكر أنني وزملائي غمرتنا السعادة لما علمنا أن بالإمكان فعل شيء لصون الكرامة الإنسانية لأولئك الذين قدر عليهم العيش في ظل ويلات الحروب والتخفيف من معاناتهم قدر المستطاع – لا سيما أن ما أطلق عليه «الحرب على الإرهاب» في أفغانستان والعراق كان موضوع الساعة في العالم في ذلك الوقت. وفي أثناء ذلك التدريب اطَّلعنا على العديد من القصص حول المذابح التي جرت في البوسنة ورواندا وكيف كان يمكن للتطبيق الفعلي للقانون الدولي الإنساني إنقاذ الأرواح وتخفيف معاناة آلاف الضحايا.

رسخ هذا التدريب إيماني بما قاله **جيري سيمبسون** (Gerry Simpson) ذات مرة: **«متى انتظمتْ الكلماتُ في صياغة محبوكة، اختلف شعورنا إزاء العالم».**

ICRC

العاطفة حاضرة

ومنذ تلك اللحظة، تعلق قلبي بفكرة وجود فرع من القانون يفيض بمثل هذه الطاقة والتعاطف والدفء الإنساني الذي يمكن تقديمه للمجتمعات المستضعفة. وذلك مع الأخذ في الاعتبار أن معظم المحامين غير معتادين على أن العواطف هي أحد جوانب العمل المهني. فنحن نميل إلى عقلنة الأمور، ما يجعلها أقل إثارة للاهتمام وخالية من المشاعر في الغالب. فانجلى أمام عيني – بفضل ذلك التدريب – منظورٌ مختلف تمام الاختلاف بشأن فهم القانون بوصفه استجابةً لأحزان البشر المستمرة، وليس فقط بصفته أداةً لخدمة العدالة وتحقيقها للضحايا.

لطالما شعرتُ طول فترة عملي في الادعاء العام أنني أريد دورًا أكبر من محاولة تحقيق العدالة. قد يقضي المدعي العام مئات الساعات في عملية الادعاء، ما بين التحقيقات وزيارة المشارح والمستشفيات والاستماع إلى الشهود وقراءة تقارير الطب الشرعي والشرطة وصوغ معنى بربط الأدلة التي جُمعت وصياغة لوائح الاتهام وحضور جلسات المحاكم، وما إلى ذلك. فهي عملية تستغرق وقتًا طويلًا في الغالب. وكلما ازداد مستوى القضية تعقيدًا، استغرقت هذه العملية وقتًا أطول بالضرورة. وأثناء المدة التي تستغرقها هذه العملية، يظل الضحايا بلا حول ولا قوة لفترة طويلة. ومن ثم، أردت أن يُظهر عملي المزيد من التعاطف والرحمة تجاه الضحايا في أثناء سير إجراءات العدالة، لا سيما مع ضحايا الحرب، الأمر الذي تحول دونه المسؤوليات الصارمة للمشتغلين بالادعاء العام، ناهيك عن تقديمهم أي مساعدة للضحايا.

لكني شعرتُ بعد ذلك التدريب أن الوقت قد حان كي أترجم هذا الدافع إلى عمل. فانضممت إلى الفريق القانوني الإقليمي التابع للجنة الدولية

عمر مكي*

في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في عام 2011. كان ذلك تحديدًا الوقت الذي سقط فيه العديد من دول الشرق الأوسط في هاوية النزاعات والمواجهات العنيفة في أعقاب ما يعرف بـ «الربيع العربي». فاتسع بالتبعية نطاقُ الدور الذي تضطلع به اللجنة الدولية في المنطقة اتساعًا كبيرًا. وشاركتُ في العديد من أنشطة القانون الدولي الإنساني في جميع أنحاء المنطقة، في بلدان مثل سورية والعراق واليمن ولبنان وليبيا وغيرها. وكنت طرفًا في مناقشات بناءة للغاية مع الكثير من صانعي القرار والسياسيين وحمَلَة السلاح ووسائل الإعلام المؤثرة، حول تنفيذ القانون الدولي الإنساني في بلدانهم.

حتى القانون له حدود

غني عن البيان أن مهمتي، بصفتي مستشارًا قانونيًّا للجنة الدولية، تتمحور دائمًا حول إقناع الأطراف المتحاربة بأن احترام القانون الدولي الإنساني أمر مهم، وأن انتهاك قواعده ومبادئه قد يسفر عن عواقب إنسانية خطيرة بالنسبة للسكان المدنيين وكذلك بشأن المسؤولية القانونية للجناة. وهذه مهمة قد يعتبرها الكثيرون «مستحيلة». ومع أن الأطراف المتحاربة تهتم اهتمامًا متزايدًا بالقانون الدولي الإنساني، من خلال تصديقها على المعاهدات ذات الصلة وإدراج القواعد القانونية الدولية في تشريعاتها الوطنية وكتيبات التدريب لديها، ما تزال الحروب في الشرق الأوسط تجلب الموت والدمار والمعاناة مع اندلاعها. وظلت أرواح المدنيين هي الضحية الأولى لتلك النزاعات. فالهجمات المتعمدة ضد المدنيين، ونزوحهم القسري، وتدمير الممتلكات المدنية والبنية التحتية الضرورية لبقاء السكان المدنيين، هي مجرد أمثلة قليلة على الأفعال التي ترتكبها أطراف متحاربة ودول وجماعات مسلحة من غير الدول بصورة منتظمة.

وغالبًا ما يسألني الناس، وبالأخص غير المتخصصين بمن فيهم الأصدقاء المقربون وأفراد الأسرة، في هذا السياق: «**ما الأثر الذي يتركه عملك؟ وأين نراه؟**». والحق أقول إنني لا ألومهم على تساؤلاتهم، إذا كان كل ما يرون هو المزيد من الموت والدمار. فلماذا قد يتوقع أي شخص منهم أن يفكر على نحو مختلف؟ إنهم يفترضون بطريقة ما أن مقياس نجاح المحامين المشتغلين بالعمل الإنساني هو انتهاء الحروب أو على الأقل توقف استهداف المدنيين. لكن ما لا يدركونه هو أنه «حتى القانون له حدود» مثلما أن للحرب حدودًا. فغالبًا ما يكون لدى الناس تصور ذو صبغة رومانسية للغاية بشأن القانون، وتوقعات غير واقعية بشأن ما يمكنه تقديمه في مناطق الحروب. وغالبًا ما تفضي هذه المفاهيم الخاطئة والتوقعات الزائفة إلى الشعور بإحباط كبير (بين عامة الناس والضحايا ومحامي القانون الدولي الإنساني أنفسهم)، وتوليد خطاب رافض للقانون الدولي الإنساني، ما قد يهدد بخلق بيئة يُنظَر فيها إلى الانتهاكات باعتبارها تافهة وتحظى بقبول أكبر. وعلى الرغم مما ذهبت إليه، فإن المبرر لكتابة هذا المقال المتواضع هو إزالة الغموض عن بعض العناصر التي أرى أن هذه المفاهيم الخاطئة والتوقعات الزائفة بُنيت عليها. والأمل معقود على أن يفضي تبيان تعقيدات «تنظيم شن الحرب» للناس إلى إذكاء إحساسهم – إن لم يكن تعاطفهم – تجاه القانون ومن يعملون على تنفيذه.

الحرب سمة دائمة

أولًا وقبل كل شيء، يميل الناس إلى الخلط بين العواقب المأساوية المتأصلة للحرب والانتهاكات بحق القانون الدولي الإنساني. بالتأكيد، الحرب بطبيعتها حدث مدمر، إلا أن القانون الدولي الإنساني غير معنيٍّ بإنهاء الحروب أو الحيلولة دون نشوبها. فهذا هو دور مجموعة أخرى من القوانين، تتجسد في ميثاق الأمم المتحدة ويفرضها المجتمع الدولي – لا سيما مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. أما القانون الدولي الإنساني بصفته فرعًا مستقلًا فهو يستند إلى افتراضٍ مفهوم وعمليٍّ بأن

●●●

* المنسق القانوني الإقليمي للجنة الدولية للصليب الأحمر لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وهو قاض مصري، تخرج في كلية الحقوق جامعة الإسكندريّة بمصر. ونال درجة الدكتوراه في القانون الدولي من معهد الدراسات العليا للدراسات الدولية والتنمية في جنيف بسويسرا. تناولت أطروحته للدكتوراه بموضوع تعزيز امتثال الجماعات الجهادية الإسلامية لقوانين الحرب المعترف بها دوليًّا.

الحرب هي سمة دائمة وربما حتمية للنظام الدولي، وحقيقةٌ يتعين علينا جميعًا (محامين وغير محامين) التعايش معها.

وهكذا، على الرغم من الإخفاق الواضح للمجتمع الدولي في حفظ السلام، لا يزال القانون الدولي الإنساني يحاول تحقيق توازن دقيق بين التدابير المطلوبة لتحقيق الغرض من الحرب (الضرورة العسكرية)، وحماية الأشخاص المتضررين من النزاع المسلح (مبدأ الإنسانية) وهو يسعى، لأسباب إنسانية، إلى الحد من آثار النزاع المسلح إلى أقصى حدٍّ ممكن. وينهض القانون الدولي الإنساني بهذه المهمة محاولًا حماية الأشخاص الذين لا يشاركون، أو كفوا عن المشاركة، في الأعمال العدائية، مثل المدنيين والجرحى والمرضى والغرقى وأسرى الحرب. كما أنه يحدد حقوق المتحاربين في تسيير العمليات العسكرية والتزاماتهم ويحد من اختيار الأسلحة والتكتيكات المستخدمة لإصابة العدو. وفي العديد من المناسبات، تؤدي الخطوط غير الواضحة بين فرعي القانون المنفصلين إلى خلط كبير بين ما يخفق المجتمع الدولي في تقديمه لإحلال السلام في النزاعات القائمة وما يفترض أن يفعله القانون الدولي الإنساني.

ثانيًا، لا ينبغي للمرء أن يتوقع أن هذا التوازن الذي ينشده القانون الدولي الإنساني أمر ميسور. إذ توجد للأسف تحديات عملية مختلفة لضمان احترام جميع الأطراف للقانون. من بين التحديات الأكثر صلة بحماية المدنيين في النزاعات المسلحة الطبيعة الحضرية لمسرح العمليات الحالي في الشرق الأوسط. في هذا النوع من الحروب، تتضح تعقيدات القصف المدفعي والجوي للأهداف العسكرية الموجودة في المدن، بسبب قرب هذه الأهداف من السكان المدنيين والأعيان المدنية.

علاوة على ذلك، فإن الطبيعة غير المتكافئة لمعظم النزاعات المسلحة في الشرق الأوسط اليوم، مع وجود فوارق كبيرة بين القدرات العسكرية للأطراف المتحاربة، تعني أن الطرف الأضعف قد يفعل كل ما يلزم لإيجاد طريقة للتغلب على القوة العسكرية للعدو. وقد تشمل هذه التكتيكات اختلاط المقاتلين بالسكان المدنيين والأهداف العسكرية بالأعيان المدنية، واستخدام المدنيين كدروع بشرية. ومن الواضح أن مثل هذه الممارسات تزيد مخاطر وقوع إصابات وأضرار في صفوف المدنيين. كذلك، فإن الخلط بين ما هو مدني وما هو عسكري من بين المهام والأنشطة المتنوعة التي يؤديها المدنيون في النزاعات المسلحة المعاصرة، فضلًا عن تعقد الوسائل والأساليب الحربية الحديثة، قد تتسبب في حالة من عدم اليقين في التمييز بين المقاتلين والمدنيين. وتتفاقم هذه التحديات حيثما تخفق الأطراف الفاعلة المسلحة في تمييز نفسها عن السكان المدنيين، كما هي الحال في أثناء تسيير عمليات عسكرية سرية أو عندما يتصرف الأشخاص كـ «مزارعين بالنهار ومقاتلين بالليل». ونتيجة لذلك، يزيد احتمال وقوع المدنيين ضحايا للاستهداف الخاطئ أو التعسفي.

ثالثًا، حتى إذا تم التوصل إلى هذا التوازن المنشود بنجاح، فسيظل من الصعب شرح خصوصيات القانون الدولي الإنساني والفوارق الدقيقة في قواعده ومبادئه للأشخاص الأقل دراية به. ولو شئت لذكرت مثالًا واحدًا فحسب، فوفقًا لمبدأ التناسب بموجب القانون الدولي الإنساني، لا يُسمح للأطراف المتحاربة بشن هجوم على الأهداف العسكرية لخصمهم إذا كان هذا الهجوم يُتوقع «أن يسبب خسائر في أرواح المدنيين أو إصابات بينهم، أو أضرارًا بالأعيان المدنية أو مجموعة من هذه الخسائر والأضرار بصورة عارضة، ويكون مفرطًا في تجاوز ما يُنتظر أن يُسفر عنه من ميزة عسكرية ملموسة ومباشرة».

بعبارة أخرى، ثمة ظروف خاصة في الحرب عندما تكون الخسائر العرضية في أرواح المدنيين وتدمير ممتلكاتهم أضرارًا جانبية «مقبولة قانونًا» بموجب القانون الدولي الإنساني، إذا لم تكن مفرطة مقارنةً بالميزة العسكرية المتوقعة من الهجوم على الهدف العسكري. وهذا واقع غالبًا ما يجد الشخص العادي، غير المتمرس بمنطق القانون الإنساني وفلسفته، صعوبةً في تقبله. فالسؤال الرئيسي الذي يشغل الذهن هو: كيف يمكن لسيادة القانون أن تؤيد قتل المدنيين؟ أما ما لا يفكر فيه الشخص العادي في هذا السياق فهو كم سيكون امتثال الأطراف المتحاربة لهذه القواعد غير عملي إذا كان القانون يفرض قيودًا غير واقعية على عملياتهم العسكرية، لا سيما بالنظر إلى التحديات المذكورة أعلاه.

رابعًا، حتى عندما تحترم الأطراف المتحاربة القانون الدولي الإنساني، فإن معظم وسائل الإعلام لا تهتم حقًّا بتغطية مثل هذا النوع من الأخبار. فهي تعتبر ذلك سلوكًا «طبيعيًّا» لا يستحق النشر. على سبيل المثال، من المستبعد جدًّا أن نقرأ في الصحف أو نشاهد في القنوات الإخبارية خبرًا عن قائد عسكري أوقف عملية عسكرية لتجنب التسبب في أي «أضرار جانبية» للسكان المدنيين في جانب العدو. بل العكس هو الواقع، فالانتهاكات بحق القانون الدولي الإنساني هي التي تتصدر في الغالب عناوين الأخبار اليومية. والإخبار بذلك خطوة مهمة للغاية – إذا وقع انتهاك بالطبع – حتى يعلم الرأي العام بما اقتُرف وينعقد الأمل على محاسبة الجناة. ومع ذلك، فإن نمط إعلام الناس بالأحداث جعل غالبيتهم يظنون أن القانون الدولي الإنساني لا يُحترم أبدًا في الحروب المعاصرة. ويتفاقم هذا المنحى بطبيعة الحال بسبب وسائل الإعلام شديدة الاستقطاب والانحياز والاستغلال، إذ غالبًا ما تستغل تلك الوسائل انتهاكاتِ القانون الدولي الإنساني كأداة دعائية لصالح أحد طرفي النزاع ضد الآخر. بالإضافة إلى أن التكنولوجيا الحديثة (بصورة أساسية استخدام الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي) تتيح نشرًا فوريًّا لأي خبر إلى العالم بأسره تقريبًا دون أي تحرٍّ للواقع.

خامسًا، إن الإخفاق الواضح للمجتمع الدولي في إنشاء أي آلية امتثال «فعَّالة» للقانون الدولي الإنساني وإفلات معظم مرتكبي الانتهاكات بحق القانون الدولي الإنساني من العقاب تُزعزع ثقةَ الناس في القانون وما يجب أن يقدمه. وبغض النظر عن آراء العديد من علماء الاجتماع ودارسي القانون بأن العقوبة يجب اعتبارها مجرد أداة واحدة من أدوات عديدة متاحة للدول تمكنها من تحقيق الهدف النهائي المتمثل في الحفاظ على النظام الاجتماعي، فإن معظم الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن القواعد لا تكون مجدية إلا إذا عوقب مرتكبو الجرائم.

أخيرًا وليس آخرًا، ليس أمام القانون الدولي الإنساني سوى أن يناضل ليحفظ لنفسه مكانًا وسط جدل شديد الاستقطاب ومستنكِف عن

السؤال الرئيسي الذي يشغل ذهن الرجل العادي هو: كيف يمكن لسيادة القانون أن تؤيد قتل المدنيين؟

سماع صوته ورافض لوجوده. ففي العديد من السياقات في الشرق الأوسط، يبدو أن الجماعات المسلحة من غير الدول – لا سيما التي يُطلق عليها «الجهادية» – تنظر إلى القانون الدولي على أنه أداة إمبريالية تفرضها الدول الغربية للسيطرة على الدول الإسلامية أو غير الغربية، وتنظر إلى القانون الإلهي – بتفسيرها الخاص – باعتباره الإطار الوحيد المُلزم للطريقة التي يسيِّرون بها الأعمال العدائية. وفي الوقت نفسه، قد ترفض بعض الدول انطباق القانون لأسباب مختلفة، على سبيل المثال، نظرًا لأن القانون الدولي الإنساني لا ينطبق إلا في أوقات النزاع المسلح، فقد تزعم الدول أن حالة معينة تنطوي على توترات داخلية أو أنشطة إرهابية ولا ترقى إلى فئة نزاع مسلح. والمسوغ لهذا الموقف، في رأي بعض الدول، هو أن الاعتراف بنشوب نزاع مسلح من هذا القبيل سيمنح الشرعية ضمنيًّا للجماعة المسلحة. وبالعكس، فإن عدم تصنيف حالة معينة على أنها نزاع مسلح من شأنه أن يسمح للدولة بتطبيق أطر قانونية أخرى تفضِّلها، بما في ذلك تشريعات مكافحة الإرهاب.

لقد ساهمتْ كل هذه العناصر إلى حد بعيد في جعل عمل المحامين في العمل الإنساني صعبًا للغاية، وهي تقوض بالتأكيد تطبيق القانون الدولي الإنساني في الشرق الأوسط وخارجه. ومع ذلك، لا يجب أن تصيبنا جوانب القصور بالإحباط فنتغاضى عما ينجح القانون الدولي الإنساني في تحقيقه فعلًا لضحايا النزاعات المسلحة، على الرغم من جميع التحديات المذكورة أعلاه.

يُستخدم هذا القانون نفسه يوميًّا كأساس لصون الكرامة الإنسانية لملايين من ضحايا النزاعات المسلحة في جميع أنحاء العالم. وهذا الواقع يتجلى لمن يعيشون في ظل الحروب بالفعل أكثر مما يظهر لمن لا يعرفون النزاعات المسلحة إلا من وراء شاشات التلفاز والكمبيوتر والهواتف المحمولة. ولو رصد المرء حجم العمل الذي تنهض به اللجنة الدولية في هذا الصدد في جميع أنحاء العالم، وغيرها من المنظمات الإنسانية العديدة الأخرى، فأنا على يقين من أن كثيرين ممن لا يرون سوى انتهاكات القانون الدولي الإنساني سيندهشون بعد أن يدركوا أن الصورة الذهنية التي تشكلت لديهم أسوأ من الواقع.

يستفيد اليوم نحو مليون محتجز، بمن فيهم المحتجزون في النزاعات المسلحة وحالات العنف الأخرى، من الزيارات التي تقوم بها اللجنة الدولية في أكثر من 1200 مكان احتجاز في جميع أنحاء العالم. فتتحقق اللجنة الدولية من المعاملة التي يتلقونها وظروفهم المعيشية، وتعمل بلا كلل مع السلطات المختصة لإدخال تحسينات في هذا الصدد. كما تقوم بجمع ومبادلة الرسائل بين المحتجزين وأفراد عائلاتهم، وتيسير الزيارات العائلية لأماكن الاحتجاز. وتعمل اللجنة الدولية أيضًا في العديد من الحالات وسيطًا محايدًا لتيسير الإفراج عن المحتجزين ونقلهم. وتُعد عملية الإفراج الأخيرة عن 1081 شخصًا محتجزين سابقًا فيما يتعلق بالنزاع في اليمن في تشرين الثاني/نوفمبر 2020 مثالًا معبرًا على هذا الدور. وتبذل اللجنة الدولية جهدًا هائلًا لاستجلاء مصير الأشخاص المفقودين في أثناء النزاعات المسلحة سواء كانوا مدنيين أو مقاتلين. وساعدت اللجنة الدولية في عام 2019 في تحديد أماكن وجود زهاء 10 آلاف شخص من خلال أنشطة البحث عن المفقودين وجمع شمل ما يقرب من 1000 شخص بعائلاتهم. ناهيك عن المساعدات الطبية والمعيشية التي يتلقاها المدنيون المتضررون من النزاعات المسلحة، فضلًا عن إعادة تأهيل البنية التحتية الأساسية. مع الأخذ في الاعتبار أن جميع هذه الأنشطة الإنسانية تجري بالتنسيق مع الأطراف المتحاربة، ما يسمح للجنة الدولية بتقديم هذه الخدمات لمن يعتبرونهم أعداء لهم.

وما أرجوه من قارئي الكريم، مرة أخرى، ألا يسيء فهمي، فأنا لا أزعم هنا بأي حال أن القانون الدولي الإنساني يحظى باحترام جميع الأطراف المتحاربة طول الوقت، أو حتى أنه لا ينتهك مرارًا. فالأمر أبعد عن أن يكون كذلك. لكن ما أحاول قوله هو، أولًا، أن هناك فجوة كبيرة بين ما يعد به القانون الدولي الإنساني العالم، وتوقعات الجمهور من هذا القانون. فغالبًا ما تستند هذه التوقعات إلى الأماني والتوهم لا إلى فهم الفروق الدقيقة بين القوانين وتعقيداتها. ثانيًا، توجد فجوة مهمة أخرى بين تصورات الجمهور حول تنفيذ القانون الدولي الإنساني والواقع على الأرض. ولو شئنا التبسيط لقلنا إن جمهور الناس غالبًا ما يتجاهل أنه ومع انتهاك القانون الدولي الإنساني بالتأكيد في العديد من أنحاء العالم اليوم، فإنه يحظى أيضًا بالاحترام الكافي إلى الدرجة التي تجعله يهم فعلًا الكثيرين من ضحايا النزاعات المسلحة، على الرغم من كل التحديات المذكورة أعلاه. فهذا القانون، في معظم الأحيان، هو كل ما يملكه هؤلاء في أيديهم للمطالبة بأي حق من حقوقهم في أوقات الحرب. إن الأصوات التي تثير مخاوف جادة بشأن عدم احترام القانون الدولي الإنساني لها ما يبررها والحاجةُ إليها ماسة، إذ يتعين علينا جميعًا التعامل مع حالة عدم الامتثال للقانون والعمل الجاد لإصلاح الوضع معًا. لكن ما يقلقني هو أن هذه المخاوف تتحول تدريجيًّا إلى شعور عام باليأس، والتشاؤم، وإلى نزعة تفكيكية. إذا سادت هذه المعاني لتجاهل القانون باعتباره غير ذي قيمة، فإن العواقب بالنسبة لضحايا النزاعات المسلحة ستكون كارثية. وبعبارة أخرى، إذا تخلى الناس عن القانون الدولي الإنساني، فسوف يعني ذلك أننا نتخلى عن الجرعة الوحيدة الموجودة من الإنسانية، وإن تكن قليلة، التي تصل إلى البشر المتضررين بالفعل في مناطق النزاع.

وفي النهاية، أعتقد أننا يجب أن نذكر أنفسنا دائمًا بأن الحروب كانت وستظل عنصرًا مدمرًا في عالمنا. ويؤكد لنا الواقع يومًا بعد يوم أننا بحاجة إلى التعايش مع تبعاتها دون الشعور بالإحباط ودون تصور حلول مثالية لها. ويجب ألا نتجاهل الواقع السياسي للحرب والقانون، وأن إنجازنا، بصفتنا بشرًا على العموم ومحامين في العمل الإنساني على وجه التحديد، سيكون على الدوام ناقصًا وضئيلًا للغاية؛ لأن العمل الذي ننهض به محفوف دائمًا بالعديد من السلوكيات البشعة التي غالبًا ما تُفسد الإحساس بأي نصر نحققه. ولكن ما دمنا نعتقد أنه يمكننا إحداث فارق لحماية الأرواح وتحسين حياة البشر في أي مكان، فأرى أن هذا المسعى يستحق كل الجهود والمفاوضات المضنية التي نبذلها ونخوضها. وأخيرًا، علينا أن نتقبل حقيقة أن أثر هذا المسعى قد لا يكون مرئيًّا لنا دائمًا بقدر ما كنتُ أنا غير مرئي بالنسبة لمندوب اللجنة الدولية الذي غيرت كلماته البسيطة حياتي منذ 15 عامًا: «حتى الحرب لها حدود» ■

يستفيد اليوم نحو مليون محتجز من الزيارات التي تقوم بها اللجنة الدولية في أكثر من 1200 مكان احتجاز في جميع أنحاء العالم

عدنان حزام*: حادثة مقتل زملائي ما زالت تؤرقني

من اليمن إلى سورية مروراً بالعراق

ضمن سلسلة حوارات تجريها اللجنة الدولية مع موظفيها في الميدان، تناقش طبيعة عملهم، والتحديات التي تواجههم، وخبرتهم في المجال الإنساني. نلتقي مع عدنان حزام الموظف في قسم الإعلام الذي أخذ على عاتقه نقل رسائل وقصص الصليب الأحمر للجمهور الواسع.

AFP

ICRC

الزميل عدنان حزام

■ **أمضيت قرابة 15 عامًا في اللجنة الدولية، أي أنك شاهدت موجات عنف مختلفة بما فيها الموجة الأخيرة من النزاعات المسلحة في العالم العربي التي اندلعت قبل عشر سنوات. كلمنا عن التحاقك باللجنة الدولية وكيف تعاملت مع موجات العنف هذه؟**

انضمامي إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر كان نقطة تحول سواء على المستوى الشخصي أو المهني؛ أن أنتقل من الإعلام كصحافي إلى شخص يعمل في مجال الإعلام الإنساني. طبعًا كانت بداية عملي ببلدي اليمن في قسم الإعلام باللجنة الدولية، وكان الوضع لا بأس به خلال تلك الفترة. لكن للأسف الشديد شهد اليمن العديد من الاضطرابات وصلت إلى النزاعات المسلحة القاسية الدائرة حاليًا. خلال هذه الفترة عملت كذلك في العراق. طبعًا العمل الإعلامي بالمجال الإنساني يعلم الإنسان أشياء ويصقل مهنته الإعلامية بطريقة ما مثل إيصال صوت ضحايا النزاعات والحياد في الطرح يجعل منك صوتًا قادرًا على إيصال أصوات جميع ضحايا الاقتتال والحروب.

■ **ما هي طبيعة عملك؟**

عملت متحدثًا رسميًا في اليمن والآن في سورية. حاولت إيصال صوت اللجنة الدولية بحياد وتسليط الضوء على القضايا الإنسانية التي أنتجتها هذه الصراعات في تلك البلدان، من الاحتياجات الإنسانية، ونقل قصص ومعاناة الملايين من البشر ممن هم ضحايا هذه النزاعات والاضطرابات والاقتتال. مررت بتجارب كثيرة ومنها تجارب قاسية أحزنتني كثيرًا. عندما تعيش في بلد يعاني النزاع المسلح وهناك الكثير من العواقب الإنسانية التي تنتج عنه، فهذا يؤثر فيك شخصيًا وخاصة عندما كنت في اليمن، بلدي، وأرى المعاناة بعينَي. أنت تحس بالألم ولكنك تحس بالفخر في الوقت نفسه. إنك تحاول التخفيف من معاناة الناس بقدر المستطاع. تشعر بالفخر أن زملاءك بالمهنة يقدمون الرعاية الصحية، يزورون المحتجزين، يحاولون التخفيف من كل هذه العواقب التي تنتج عن هذه الصراعات والاضطرابات.

■ **أنت يمني، شاهدت عن قرب مدى الدمار الذي أحدثته الحرب في بلادك، ثم مضيت إلى العراق. حدثنا عما رأيته هناك.**

مهمتي في العراق كانت قصيرة ولكنها كانت تجربة أعطتني لمحة أكثر عن التدخل الإنساني في

REUTERS

كذلك جائحة كورونا التي أنهكت الاقتصاد وأثقلت الحياة اليومية لملايين السوريين. ما ضاعف المعاناة بسورية وغيرها من مناطق الصراع أن هناك آثارًا إنسانية خلفتها هذه الصراعات.

وهذا ما يجعل اللجنة الدولية للصليب الأحمر وغيرها من المنظمات تسعى إلى تقديم العون الإنساني والتخفيف من هذه المعاناة في مختلف المجالات. هناك الكثير من قصص المعاناة التي شهدناها لا سيما معاناة الأطفال والنساء في مخيمات النزوح. بالنسبة لي أشعر بالأسى العميق وتتردد داخلي أسئلة كثيرة فأتساءل لماذا وصلت البشرية لهذه الحال؟

قد يكون وضع القتال قد هدأ في سورية الآن، ولكن هناك احتياجات إنسانية كبيرة

بلد مثل العراق، بلد عريق بتاريخه وناسه. تتألم كثيرًا عندما ترى ما آلت إليه الأوضاع في تلك الفترة. حزنت كثيرًا. كانت تجربة جيدة لي بالعمل خارج اليمن. كانت أول مهمة خارجية. تجربة جديدة. آنذاك لم يكن الوضع بمثل هذا السوء، لكن كانت هناك إرهاصات للأسوأ الذي سيأتي..

■ هل يمكن أن تشاركنا بتجربة لها أثر عميق فيك؟

مررت بلحظات سيئة عندما فقدت بعض زملائي في العمل في اليمن. كانت من أصعب اللحظات، وخاصة عندما كنت أرد على أسئلة الإعلاميين، وأحاول السيطرة على مشاعري وأنا أتحدث عن زملائي الذين أعرفهم شخصيًّا، فكان الأمر يؤلمني كثيرًا وتملكني حزن شديد**. كثير من الزملاء تضامنوا معي بشكل كبير. ولكن أعتقد أن هذه هي ضريبة العمل في المجال الإنساني. أذكرهم دائمًا وأطلب لهم الرحمة داعيًا اللّه أن يجنبنا كل مكروه أنا وزملائي الذين يعملون بالمجال الانساني في الميدان في أي مكان في العالم، ليس فقط في الصليب الأحمر، ولكن في أي منظمة إنسانية تحاول التخفيف من معاناة البشر خاصة في هذه الظروف الحالية.

■ حدثنا عن تجربتك الحالية في سورية؟

تجربتي باللجنة الدولية للصليب الأحمر بسورية كمتحدث رسمي وكذلك كمسؤول إعلامي في شمال شرق سورية أعطتني الحافز الأكبر والإيمان القوي بقدرة العمل الإنساني على التأثير.

تأثير ملموس يخفف من معاناة من أصابته هذه النزاعات. عملنا لا ينهي المعاناة طبعًا. نحن دائمًا نحاول تخفيفها عن الضحايا وذلك من خلال تقديم خدمات صحية وزيارة المحتجزين وإبقاء التواصل بين العائلات وأقربائهم الذين فقدوا التواصل معهم نتيجة هذه النزاعات. تجربتي في سورية أضافت لي كثيرًا على المستوى المهني.

■ أمضيت ثلاث سنوات في سورية حتى الآن، صف لنا مشهد النزاع المسلح، وكيف كانت استجابتكم لهذه الأزمة الإنسانية؟

قد يكون وضع القتال قد هدأ في سورية الآن، ولكن الوضع الإنساني سيئ للغاية. هناك احتياجات إنسانية كبيرة، وضع اقتصادي سيئ

■ ما هي تصوراتك عن المستقبل: لبلدك اليمن، ولسورية، وللعالم العربي؟

يراودني الحلم أنه ستكون هناك أيام أفضل لبلداننا عندما يحل السلام. هذه أمنية من شخص يحب السلام، أن يكون هناك احترام للعمل الإنساني بمناطق الصراع. أن تنظر أطراف الصراع لهذه الملفات وخاصة المفقودين والمحتجزين وغيرها من الملفات الحساسة التي أنتجتها هذه الصراعات بعين الحياد. ألا يكون هناك تسييس للقضايا الإنسانية وأن يُعطى العمل الإنساني مساحات أكبر. هذه أمنيات لا أدري متى تتحقق، وأيضًا الحلم الأكبر أن يكون هناك سلام بهذا العالم نحن في أمس الحاجة إليه ■

★ مواليد العام 1979 تخرج في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بجامعة صنعاء. حصل على ماجستير إدارة الأعمال. متزوج ولديه طفلتان.

★★ في السنوات الأخيرة، ومع ارتفاع حدة النزاعات المسلحة في عدد من الدول، جرى استهداف موظفي اللجنة بالقتل والخطف في سورية وليبيا واليمن وأفغانستان والكونغو. في اليمن فقدنا اللبناني حنا لحود وهو يؤدي مهام عمله في 21 نيسان/ أبريل 2018. وقبله بثلاث سنوات فقدنا عبد الكريم غازي ومحمد الحكمي. وفي العام 2015، فقدنا حسين صالح الذي قتل هو أيضًا خلال تأدية واجبه الإنساني.

رمَّاح زوان*

كانت المرة الأولى التي أزور فيها مكتبًا تابعًا للهلال الأحمر. استقبلني شعار هلالٍ أحمر مرسوم على خلفية بيضاء يتزيَّن بسبع كلمات موزعة حوله، كانت «الإنسانية» أول كلمة قرأتها.

من ذاكرة متطوع في العمل الإنساني

تناقضات الحياة على جبهة الحرب في سورية

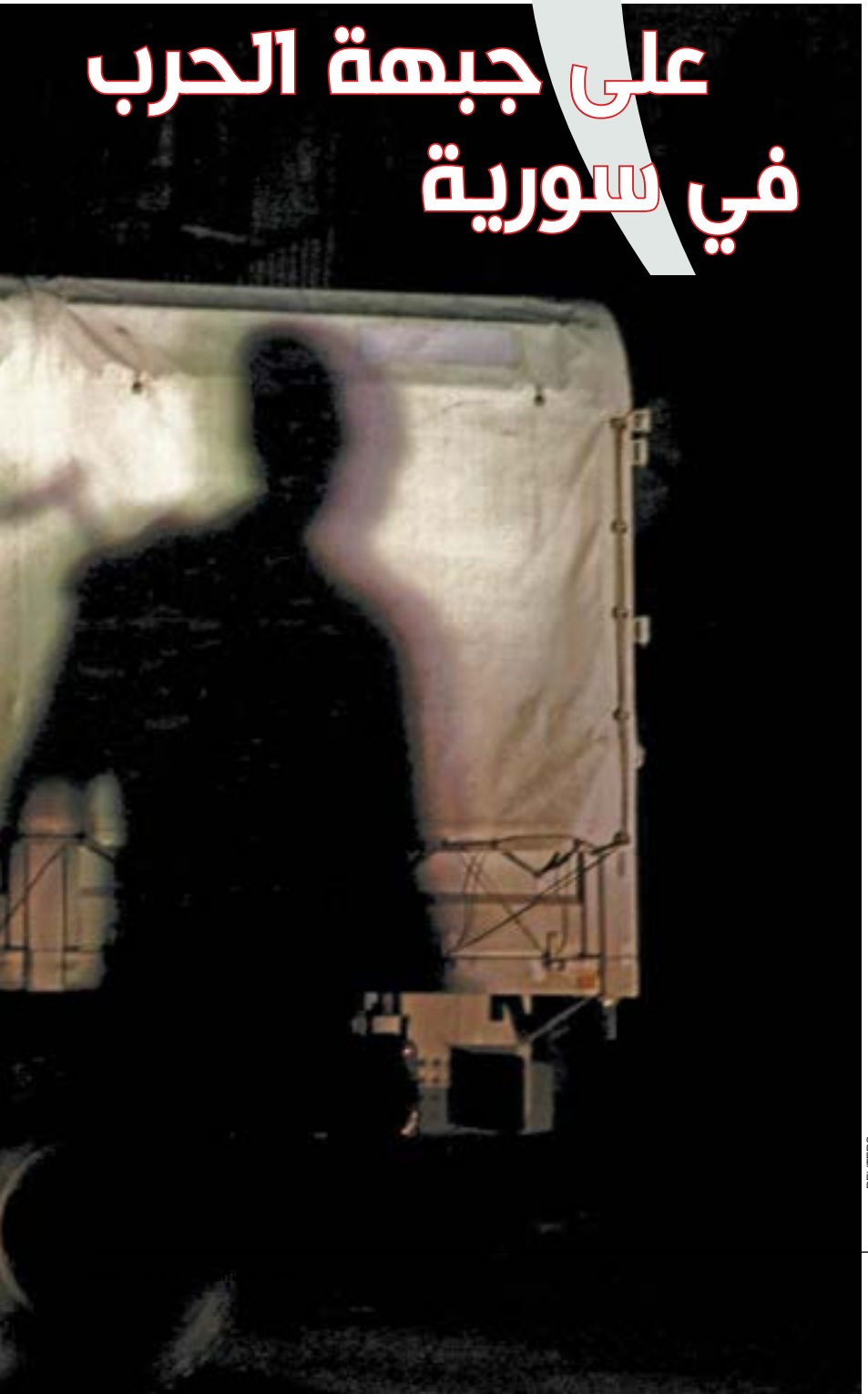

REUTERS

ما إن وصلت إلى الطابق الثاني حيث يوجد مكتب فرع الهلال الأحمر العربي السوري في المدينة حتى انتهيت بقراءة كلمة «الحياد» مرورًا بعدم التحيُّز والاستقلال والخدمة التطوعية والوحدة والعالمية.

انتظرت لدقائق بينما أنهَت الموظفة تسجيل أسماء بعض المراجعين، شاهدتُ حينها صورًا معلَّقة على الجدران، منها صورة لرجلٍ مُسِنٍّ يستند على متطوع خلال إجراء فحص طبي داخل عيادة متنقلة، وأخرى لأطفال يشكلون دائرة حول متطوعةٍ بدَوا وكأنهم بتلات وردة، إضافة لصورة بالأبيض والأسود لرجل يُدعى «هنري دونان».

عبر بحثٍ سريع على «غوغل» علمت أنَّه مؤسس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، قرأت عن الجهود التي بذلها حتى ترى هذه المنظمة الدولية النور لتخدم ضحايا الحروب في أنحاء متفرقة من العالم. بعدها سلَّمت الأوراق المطلوبة وبعض المعلومات الشخصية التي يتوجب على المتطوعين المقبولين في المنظمة تسليمها.

تغير العناوين

كان التطوع وسيلتي الأنجع في بلاد تحولت أسماء مدنها المقترنة بالتاريخ والثقافة والطرب والأطباق الشهيَّة إلى عناوين للحرب والصراع والموت تتصدر نشرات الأخبار. أما اختياري الهلال الأحمر فكان لرغبتي بالمساهمة في تخفيف معاناة ومساعدة أكبر عدد من السوريين الذين يحتاجون يدًا تمد العون.

كيف لا وهم إخوة لي يجمعني بهم اسم هذا البلد العظيم الذي تشرَّبنا عشقه مع حليب أمهاتنا وقصص الجدات، والذي تحول بين ليلة وضحاها إلى بلد منكوب بكل أنواع المعاناة، وباتت مدنه مدن أشباح تغطيها سحب سوداء سبَّبتها التفجيرات الدامية.

كنت أرى أن هذا الموت العابر لمجمل الجغرافيا السورية عندما انفلت من عقاله لم يعد يفرق بين كبير وصغير، أو بين ضفة وأخرى. لم يعد الرصاص الطائش والقذائف الغبية جميعها يكترث لأسماء الضحايا ومعتقداتهم ولا لمواقفهم من القضايا التي

*عمل متطوعًا في الهلال الأحمر العربي السوري

**هنري دونان (1828–1910) رجل أعمال سويسري أسس اللجنة الدولية للصليب الأحمر كمنظمة إغاثية محايدة ولا تنحاز لأحد. وهو أول من حصل على جائزة نوبل للسلام.

يؤيدها كلٌّ منهم أو يؤمن بها، إنها الحرب المجنونة والجميع ضحايا بشكل أو بآخر.

خلال أقل من أسبوع، باشرتُ عملي التطوعي في فريق الإعلام والتواصل، كان يتوجَّب عليَّ مرافقة جميع الفرق والخوض في تفاصيل عملها لملامسة الأثر المتوقَّع الذي ستتركه مساهمتها في المجتمع المستهدَف لتوثيق نشاطاتها عبر كتابة قصص نجاح للمستفيدين من المساعدات الإنسانية، أيضًا كان يتعيَّن الحديث مع المستفيدين أنفسهم لمعرفة رؤيتهم إزاء الخدمات الإنسانية التي تلقوها وكيف استطاعوا ترميم منزل هنا أو نجحوا في إعادة سبيل عيش هناك أو تلقيهم لخدمات طبية، نفسية أو حتى قانونية.

كان التطوع وسيلتي الأنجع في بلاد تحولت أسماء مدنها المقترنة بالتاريخ والثقافة والطرب والأطباق الشهيَّة إلى عناوين للحرب والصراع والموت

سياسة الحياة اليومية

من الصعب جدًّا، بل يمكنني القول يستحيل فصل الحياة اليومية عن السياسة في نزاع كالذي يحصل في سورية، حيث يكاد لا يخلو حديث من نقاش سياسي أو تداول لأخبار الحرب أو أسماء الضحايا والجرحى.

كان التخندق قد بلغ أقصاه، وكلٌّ يصنِّف ضحايا الآخر حسب موقفه السياسي. في سورية تضطر لسماع وجهة نظر الناس إزاء من يخالفونهم في آرائهم السياسية، غير أنه في بعض الحالات تضطر لسماع نقاشات دينية، طائفية ومناطقية في «الميكروباصات» ووسائل النقل العامة، وحتى أثناء المشي في الشارع! ما يطبع في لاوعي الأفراد تصوُّرات من شأنها تكوين ولو جزء من توجهات مهما حاولوا تجنب تكوينها. ومن هنا يخضع كل عمل مجتمعي وخاصةً في حالة التطوُّع إلى تقييمات خارج مجال الإنسانية والحياد التي من الأساس والواجب أن تتحلَّى بهما خلال عملك التطوعي، لتُطرح عليك أسئلة من قبيل «**كيف تقدم مساعدة لهذا وهو يؤيد الحكومة؟**»، أو «**كيف تُعين من يقف في صفِّ المعارضة!**»، «**رأينا قوافل للهلال الأحمر تدخل منطقة معينة، لماذا لم تتوجه قوافلكم إلى مناطقنا**». يَصيح أحد المارة ونحن نقف على إشارة المرور في طريقنا إلى استجابة إنسانية لأهالي **الرقة** النازحين إلى محافظتَي **اللاذقية وحماة**. يردُّ قائد الفريق بابتسامة ويشيح بنظره إلى الجهة الأخرى، ليصيح آخر «**ربُّنا يحميكم ويشدُّ على أيديكم**» ليقابله بالابتسامة ذاتها، ويُوعِز لنا بعدم الرد أو الخوض في أي نقاش أو جدال. «**ابتسموا في وجوه من يقاسون الحرب، ومن فقدوا أحبتهم**» قالها مع لحظة تحرك السيارة باتجاه مكان الاستجابة، وأكاد أجزم أن الجميع راح يفكر – ومن بيننا من فقد فردًا من عائلته أو من خسر منزله وسبل عيشه بسبب النزاع – لماذا يريد الجميع تقييم عملنا على أساس سياسي أو مناطقي في وقت نحاول جاهدين أن نشطب من قواميسنا كل تلك الاعتبارات؟!

كان التناقض الذي يعيشه متطوعو الهلال الأحمر العربي السوري أكبر من كل التصوُّرات، كما كانت التقييمات التي يخضع لها من محيطه أقسى من أن يتخيَّلها أحد، فضلًا عن معاناة المتطوع نفسه من آثار النزاع والظروف المعيشية الصعبة لأنه في المحصلة هو مواطن سوري يعيش في بيئة النزاع نفسها ويقاسي الأمرَّين، وهو قبل كل شيء مُعرَّض لخطر سقوط قذيفة هنا أو الإصابة برصاصة قناص هناك.

الحرب لا تفرق أحيانًا

وعلى الرغم من وجود قوانين تحمي العاملين في المجال الإنساني بعدم التعرُّض أو استهدافهم، فإنَّ رحى الحرب لم تُفرِّق بين متطوع أو صاحب حرفة أو موظف مدني أو عسكري، إذ لقي نحو 65 متطوعًا تابعًا للهلال الأحمر العربي السوري حتفهم خلال الأزمة، الأمر الذي شكَّل ضغطًا نفسيًّا مضاعفًا على كل متطوع، ومع ذلك، لم تفتر عزيمة المتطوعين، ولم يتوانوا عن تقديم المساعدة والوفاء بالتزاماتهم الإنسانية تجاه الفِئات الأشد ضعفًا.

هل حقًّا هذه بلادنا؟

قبل خمسة أعوام، استيقظَت محافظة اللاذقية على دوي تفجيرٍ هز المنطقة بأكملها، حيث تعرضت منطقة الكَراجات في مدينة **جبلة** جنوب **اللاذقية** لتفجيرات عنيفة في أكثر الأوقات اكتظاظًا بالناس، أودت بحياة عشرات الضحايا وأصابت المئات، فضلًا عن تدمير هائل لحق بالبنى التحتية والمنازل المجاورة والمحال التجارية والسيارات، الأمر الذي استدعى استجابة فرق الإسعاف الأولي التابع للهلال الأحمر العربي السوري، إذ كانت من أوائل المستجيبين، وبعد يوم هو الأعنف في حياة متطوعي الهلال الأحمر عادوا إلى مقرِّ عملهم، لتنهار فجأة إحدى المسعفات بالبكاء! كانت قد تمالكت نفسها طيلة فترة نقل الضحايا وإسعاف المصابين، إلا أنَّ هول المشاهد كان قد طرح سؤالًا يعجز عن تفسيره المنطق «هل حقًّا هذي بلادنا؟».

السؤال الذي لم تتمالك عنده المتطوعة نفسها، فكان الانفجار بالبكاء جوابًا له لتسقط أرضًا مُغمَى عليها، بعد أقل من نصف ساعة استيقظت قائلة «**هناك حياة أُنقِذَت، هذا يكفينا لنستمر**».

كذلك أكد كل من شارك في عملية الإسعاف يومها أنَّ رائحة الجثث المتفحمة لم تفارقه حتى في مناماته لأشهر، لكن في الوقت نفسه كانت هناك رغبة تتعاظم لتقديم المزيد من الجهد كون دائرة المتضررين تتسع مع كل حدثٍ مأساوي، فضلًا عن طول مدة النزاع، الأمر الذي حوَّل معاناة المتطوعين نفسها إلى همم مشحوذة لتقديم يد العون للمجتمعات المتَّضررة. ومن هنا كانت الثقة تتعزز بهم من قبل المجتمع، كذلك الثقة بأنفسهم بأنهم يلبُّون بحق نداء الإنسانية من أجل الجميع.

ربما يكون الوقت هو أغلى ما يملكه الشباب بشكل عام والسوريون خاصة، ليُكرِّسوه في العمل من أجل مستقبلهم، لكن في حالة النزاع السوري كان يتوجَّب لهذا العمل أن يكون بأضعاف مضاعفة على ما هو عليه، في أزمة لامسوا فيها خط الفقر ومنهم من تخطاه إلى مراحل أسوأ بسبب ما فرضه النزاع من حصار وواقع معيشي قاسٍ، فضلًا عن تقطيع أوصال البلاد خاصة في أُولى سنوات الصراع ما انعكس كارثيًّا على دوران عجلة الاقتصاد وتوفُّر فرص العمل وحتى الدراسة أحيانًا.

ICRC

ICRC

وكما كانت هواجس العمل هذه لدى كل شابٍ سوري تحمل معها القلق والتفكير المفرطَين، كان يضاف إليها في حالة متطوعي الهلال الأحمر مسؤولية وجدانية تجاه المجتمع المنتظِر ليدِ العون، كانوا يحملون مسؤولية أخلاقية، وأستطيع القول إن كل متطوع في الهلال الأحمر شطر قلبه لنصفين، نصف كان في سبيل تقديم يد العون، وفي الوقت ذاته كان البعض يسألهم «ما لكم والتطوع في هذه الظروف الصعبة؟». كانت مثل هذه الأسئلة سببًا آخر لتشتيت الجهود، إلا أنها تحولت إلى فرصة للتعريف بخدمات الهلال الأحمر «نحن هنا من أجلكم جميعًا عبر هذه الخدمات والفرق التطوعية المتخصصة». وطبعًا لم يخلُ الأمر من وجود حالات عزوف عن التطوع بسبب ما راكمه النزاع من ضغوطات لم يستطِع البعض تحمُّلها.

أستطيع القول إن كل متطوع في الهلال الأحمر شطر قلبه لنصفين، نصف كان في سبيل تقديم يد العون، وفي الوقت ذاته كان البعض يسألهم «ما لكم والتطوع في هذه الظروف الصعبة؟»

وفي الاستجابة الإنسانية الأضخم من نوعها في ريف دمشق، التي توافد من خلالها متطوعو الهلال الأحمر العربي السوري من معظم المحافظات السورية إلى المعابر الإنسانية لمؤازرة زملائهم في فرعي دمشق وريفها للوقوف على حاجة المدنيين الخارجين من مناطق النزاع المسلح في بلدات وقرى الغوطة الشرقية إلى مراكز الإيواء، أو أفراد الجماعات المسلحة الذين قرروا الذهاب إلى مناطق محددة وفق التسوية المقررة بين الأطراف المتنازعة.

كان من بين هؤلاء المتطوعين من فقد فردًا من عائلته أو صديقًا في المنطقة نفسها، الأمر نفسه ينطبق على المتطوعين الذين كانوا داخل مناطق الغوطة الشرقية على مدار خمس سنوات يقومون بواجبهم الإنساني على أتم وجه، عندها لم يفسح متطوعٌ قطُ المجال لأي فكرة أن تجوب رأسه من ناحية عدم الحياد أو التحيز، على الرغم من ألم الفقد ومرارة الفراق وسنوات عجاف قضوها تحت أزيز الرصاص وقصف المدافع ومشاهد الدخان والنيران من كل صوب.

في الاستجابة الإنسانية لأهالي قريتي **كفريا والفوعة** في ريف إدلب الذين وفدوا إلى محافظة اللاذقية بعد إتمام ما عرف باتفاق «البلدات الأربع» (**مضايا والزبداني – كفريا والفوعة**) فقد لوحظ فيها كثرة الأطفال، ما استدعى انضمام فريق حماية الطفل ضمن مشروع الصحة المجتمعية التابع للهلال الأحمر إلى الفرق المعنية بالاستجابة، وكان من اللافت أنه ما إن ينتهي متطوع من مهامه حتى ينضم لمساندة فريق آخر، حتى صار كل متطوع يُسخِّر كل قدراته في سبيل هدف واحد وهو تخفيف معاناة هؤلاء الأطفال، وأتذكر جيدًا المتطوعين المعنيين بتوزيع السلال الغذائية كيف صاروا رديفًا لفريق الدعم النفسي الاجتماعي، حيث تلقوا مسبقًا دورات في الإسعاف النفسي الأولي، ليتحوَّل مكان التجمع من نقطة لوصول النازحين المثقلين بصور الحرب ورائحة البارود إلى «ساحة عيد» تعلو فيها ضحكات أطفال حُرِموا من حقوقهم في اللعب والتعلم على مدار سنوات.

بعد كل ذلك، وفي نهاية كل استجابة إنسانية أو إنهاء تسليم مساعدات في منطقة ما، كانت تجاعيد الوجوه التي حفرتها سني الحرب تتحول إلى ابتسامات تُترجِم مشاعر الرضا في نفوس المستفيدين، لتقول للجميع **«لا سبيل لنا سوى المحبة والتكافل لنحيا على مبدأ فُطرنا عليه وهو الإنسانية»** الذي حفظه متطوعو الهلال الأحمر العربي السوري في قلوبهم وأذهانهم وطبَّقوه فعلًا خفَّف معاناة ورسم ابتسامة وأعطى أملًا ■

صباح فخري يستقبلكم:
جولة في الذاكرة
لصوت و رائحة حلب

علا العجيلي*

لا أدري تمامًا ما حل بهذه الأبواب ولكن أعلم أن عشر سنوات من النزاع كانت كفيلة بطحن كل شيء، فأغلب ما تراه اليوم هو هياكل تصدعت قلوبها من شدة الألم.

تبدأ مسيرك في قلب المدينة القديمة، لا يهم إن خطوت بقدمك اليمنى أو اليسرى. ففي حلب أنت تسير بقلبك وحواسك الخمس. ربما تحتاج إلى حاسة سادسة لتحتوي هذه الحاضرة. تبدأ مستفتحًا بجامع علي الرومي، الذي كان يحتفي بأجمل الحضرات الصوفية سابقًا، ستبدو لك أصوات الذكر قادمة من الأحجار. فالأحجار ليست صماء، على الأقل هي ليست كذلك في الشهباء، تتابع مواجهًا جامع التروس، أول جامع بناه المسلمون فرحًا بدخولهم المدينة دون الحاجة إلى الحرب والاقتتال، رموا سيوفهم وتروسهم أرضًا معلنين السلام.

ICRC

ألوان قد بهتت

يقع على يمينك حي الجلوم، وعلى يسارك حي العقبة أقدم حي معمور في حلب، فتكمل بخط سير مستقيم ضمن سوق أنطاكية، ما زلت أذكر هذا السوق الشعبي الذي كان يكتسي ببضائع من النخب الثالث والرابع، بضائع ملونة، مزركشة كثيرة الزينة تبعث في النفس إحساس الربيع وفرحة الأطفال، يبتاعها

ICRC

«قل للمليحة في الخمار الأسود، ماذا فعلت بناسك متعبد».

هذا ما سيتردد صداه على حواسك بصوت صناجة العرب الراحل صباح فخري على مقام السيكا العراقي، لحظة دخولك المدينة القديمة من باب أنطاكية، فكما لمكة شعابٌ، فلحلب أيضًا أبوابٌ خمسة باقية تتوزع على محيط سورها القديم، هي أنطاكية، قنسرين، المقام، الحديد، النصر.

في الأعلى صورة للزميلة علا العجيلي مع أطفال حلب

جانب من حجم الدمار الذي أصاب شوارع المدينة المنكوبة

* موظفة بقسم الإعلام في بعثة اللجنة الدولية في حلب

أهل الأرياف بسخاء لا يخلو من المبارزة التقليدية. اليوم لا الأرياف ولا أهلوها ولا السوق باقٍ كما كان. اليوم الرؤية بالأبيض والأسود، فالألوان قد بهتت بفعل الدمار الهائل الذي ينهك كل من يراه، فما أدراك بذاك الذي عايشه.

لم تكن حلب العاصمة الاقتصادية والتجارية لسورية عبثًا، ولم يجرِ اختيارها كعاصمة للثقافة الإسلامية عام 2006 عن فراغ، فهي ثروة حية من الأسواق (يتألف سوق المدينة فيها من 37 سوقًا و30 خانًا)، هذه الأعداد مهمة للغاية، فهي ليست مجرد أرقام لبضعة شوارع أو محال بيع، هذه حاضرة تراثية وذاكرة حية لمدينة خالدة خلود الأوطان ولا تزول إلا بزوالها.

يليك سوق الأحمدية ومن ثم ساحة الفستق، لا بد أنك تذوقت الفستق الحلبي ولو مرة واحدة على الأقل في حياتك. إن لم تفعل، فسارع إلى أول صوت يصدح «عاشوري يا مال حلب»، عندها سترى حلب بعيون محبة ونكهة طيبة أيضًا.

يستقبلك بعدها يسارًا سوق المجيدية بخاناته تباعًا: خان البنادقة، خان الجاكي وخان الحرير. ستلتفت يمنة ويسرة باحثًا عن مصدر هذه الرائحة الزكية، رائحة السكر وماء الزهر. هنا كانت تباع كل أنواع الضيافة «حلوى المناسبات». كانت هذه الأسواق تزدان في مواسم الأعياد بمختلف البضائع وأجملها، يتسابق إليها أهل حلب ليملأوا بيوتهم بشتى أنواع الضيافة معلنين بداية مواسم فرح لا نهاية لها. على الأقل هذا ما كانوا يظنونه.

ذاكرة للرائحة

عقد كامل من النزاع قضى على الكثير. هذا الكثير الذي لا يُحصى، لكن لم يستطع القضاء على رائحة ماء الزهر مثلًا، حتمًا ستعود هذه الرائحة لتمتزج مع السكر مجددًا، ستعود على هيئة ملبس أو مَنٍّ وسلوى، ستعود لتباع من جديد بمواسم الأعياد ولتعلن عن مواسم جديدة من الفرح.

تكثر أمامك الدروب في المدينة القديمة ولكن هدفك بقطع سبعمائة متر من الأسواق متجهًا نحو حاضرة الجمال في الشهباء، يعود بك إلى قيسارية الجلبي بآخر سوق الأحمدية. والقيسارية هي ورشة صغيرة لصناعة النسيج، وحلب نسجت عبر عقود آيات من الجمال والبهاء، وكانت الرائدة في هذا المجال فقصدها التجار من كل حدب وصوب.

تكمل باتجاه سوق السقطية، مرتع اللحوم المختلفة. كانت تباع هذه اللحوم بعد أن تُذبح وتُعلق بخطافات حديدية على أبواب السوق الخشبية الشبيهة بأبواب القلاع من ضخامتها وحسن صنعتها ومتانتها، إلى درجة أنها صمدت أمام الحرب الأقوى والأعتى في التاريخ الحديث. فعلى الرغم من الأسى والدمار الذي اعترى المنطقة، ما زلت تستطيع رؤية أثر الخطافات المعدنية على أبواب سوق السقطية. إذا اقتربت أكثر لربما استطعت استنشاق رائحة اللحم المُعد للبيع، لا أدري مدى استساغة هذه الرائحة، ولكن أعلم أنها رائحة الماضي الجميل، وجزء من معالم المكان. غريبة هي الحرب التي تمحو أحياء كاملة وتُبقي على أثر خطافات حديدية على باب خشبي.

الآن، تؤدي بك الطريق إلى قلب الحدث، إلى هذه المساحة التي جمعت أهل الأرض يومًا ما، إنه سوق العطارين، الأكثر شهرة والأكثر تضررًا، في الحقيقة أنت الآن في كتلة مدمرة مطموسة المعالم تشهد عليها شظايا الأحجار المدببة المنثورة هنا وهناك.

شريط سينما

هذا السوق يمر في ذاكرتي كشريط سينما، كنت أزوره ممسكة بيد جدي مرافقة إياه إلى عمله في منطقة السويقة، نقصده عادة لنبتاع قائمة طويلة من البهارات طلبتها منا جدتي. كانت لهذا السوق رائحة مميزة، تشبه رائحة الحضارات والشعوب، فأنت وبمجرد مرورك بالسوق تزور عدة بلدان وتتعرف على نكهات المدن وأنت لم تبرح مكانك، فلديك البهارات المصنعة محليًّا وتلك المستوردة من الهند والسند والصين، هناك الزيوت المختلفة للغوا والدوا ونجوم البحر المجففة والمعلقة كسلاسل ذهب على واجهة المحال. والأهم لديك (أبو فاس لوجع الراس)، جملة ستسمعها على امتداد السوق، فالعطارون معالجون وأطباء شعبيون، فلا تستهن بقدرتهم على مداواة جرح المدينة.

بمجرد مرورك بالسوق فأنت تزور عدة بلدان وتتعرف على نكهات المدن وأنت لم تبرح مكانك

REUTERS

REUTERS

حال الأسواق قبل وبعد الصراع المسلح بالمدينة القديمة

AFP

REUTERS

طوبى لمدينة ذاكرتها هي مستقبلها وجرحها هو قوتها

ICRC

AFP

في أعلى صورة لجانب من المدينة الجميلة تظهر في عمقها قلعة حلب الشهيرة قبل الصراع المسلح.
ثم صور تبين مقاومة بعض المحلات في السوق القديم للأوضاع، وكيف رممت نفسها لتعود لتمارس نشاطها وتقدم خدماتها

لا بد أن عشقي للفن التشكيلي بدأ من هنا، فكنت أناظر ألوان البهارات بشغف غريب مكتشفة الدرجات الغريبة وتداخل الألوان بصنعة مبهرة وبريشة عرَّاف، الفنان باحث عن الجمال في كل مكان، أعتقد أن سوق العطارين كان المكان الأول والأجمل.

يواجهك مباشرة سوق العبي يليه سوق الزرب، يحزنك خلو المكان من الأصوات والأضواء، فأين هي جملة تفضلي يا خانم التي كانت تتردد على امتداد المحال فتسمع الصدى قبل الصوت، وأين هي حميمية السوق التي تنشأ من تلاصق الدكاكين ببعضها واستناد كراسي القش المرصوفة أمام الأبواب واحدها على الآخر.

عند مخرج السوق ستصادف بعض المحال التي عادت للعمل، رممت ولملمت شتاتها وأضاءت قناديلها وعادت من جديد، فعلى الرغم من صعوبة العودة إلى نقطة البداية، فإن هناك انتماء سيظل يشدك إلى المدينة القديمة، إلى روح المدينة.

تنتهي رحلتك في أطول سوق مسقوف في العالم لتخرج منه مواجهًا لؤلؤة الشهباء (قلعة حلب) إحدى أكبر وأقدم القلاع في العالم، سيعتريك الذهول في حضرة الجمال والجلال، حصن منيع استطاع الصمود في وجه الحروب والزلازل والنكبات، صرح من الإبداع العمراني وشاهد عيان على تاريخ إحدى أجمل وأقدم مدن العالم.

فالمليحة هي حلب، والنساك المتعبدون هم نحن القاطنون والزوار، فمن ذا الذي لا يقع في حب مدينة كهذه، على الرغم من كل ما شهدته من قساوة خلال عقد طاحن من النزاع أباد الكثير من عوالمها وأسكن الأسى في قلوب أهليها، لا تزال محاولة الخروج من الرماد والولادة من جديد، فطوبى لمدينة ذاكرتها هي مستقبلها وجرحها هو قوتها، طوبى لمدينة كل دروب الحب في العالم تؤدي إليها ■

تمثيلات الحرب: الذاكرة والتخييل والاستعادة في الرواية العربية الحديثة

إيهاب الملاح*

يكاد يُجمع نقاد الرواية العربية المعاصرة على أن الحديث عن الرواية العربية والحرب والهزيمة ينطوي على فرضية مهمة أو اعتراف ضمني بأن الأدب والفن ظاهرة متطورة، تؤثر في البيئة المحيطة وتتأثر بها، وهو اعتراف يؤكد أن الرواية تصوير لتجربة بشرية، وليست مجرد مجموعة من الأنساق والتراكيب والرموز المجردة.

1)

الرواية ترتبط بالإنسان إبداعًا ومادةً وتلقيًا. ويبدو أن المرء مضطر للتأكيد بأن التطور في الأدب له مساره الخاص، إذ يختلف عن التطور العلمي، كما أن التطور الأدبي لا يخضع لمنطق السنوات أو المراحل الزمنية ولا سيما عندما يكون النوع الأدبي المدروس حديث النشأة. فالتغيرات الأدبية أبطأ من التغيرات السياسية أو الاقتصادية، ولهذا فإن العلاقة بين التطورات الأدبية والمنعطفات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليست على درجة واحدة من الوضوح، بل هي تختلف حسب المراحل التاريخية وكذلك حسب طبيعة الإنتاج الأدبي.

وعلى الرغم من كل التأكيدات والاحترازات السابقة فإن المرء يستطيع أن يقرر بكل ثقة بأن «حرب 67» أو «نكسة حزيران/يونيو» كانت بمثابة الحد الفاصل بين مرحلتين في حياة الرواية العربية، بل في حياة الأدب العربي برمته، كما يذهب إلى ذلك ثلة من النقاد المعاصرين.

إن الأبنية الروائية ليست أبنية قائمة في فراغ، وإنما هي أبنية وعي يتولَّد عن شروط إنتاجه في واقعه النوعي الذي تتولَّد عنه وبه أبنية جمالية، حاملة خصائصه التكوينية بمعنى أو آخر. ولهذا فقد أحدثت تلك الحرب على سبيل المثال خلخلة عميقة في الأبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ وفي منظومة القيم ومنها القيم الفنية والمعايير الجمالية، فهي حجر الزاوية لكل ما تلاها وما جرى ويجري. ولهذا يمكن أن تُعد - بحق - بمثابة منعطف أساسي في مسار التاريخ.

لهذا يمكن القول أيضًا بأن فكرة الحرب والهزيمة فرضت نفسها على الروائيين العرب على اختلاف توجهاتهم ومشاربهم، واستطاعت أن تخلق عددًا وفيرًا من الروايات الخاصة بها. هذه الروايات لها أهميتها ودلالاتها من حيث العدد والتنوع في الموضوعات والرؤى، ومن حيث الأساليب والأشكال والمستوى الفني والمستوى الجغرافي.

2)

سنسعى في هذا المقال إلى عرض نماذج من الرواية العربية المعاصرة عالجت تيمة الحرب بصورة أو بأخرى ومن منظورات رؤيوية مختلفة وخيارات جمالية متباينة، لكنها في النهاية تكاد تتفق على البحث الدقيق عما تخلفه الحرب من آثار ظاهرة وعميقة ودفينة على الأفراد والمجتمعات، وكل شيء كان في مرمى النيران والمدافع. وقيمة الرواية؛ أية رواية، لا تنبع مما فيها من تشويق فحسب، وإنما من كل ما يضاف إلى التشويق من رؤية جمالية، توازي الواقع الذي نعيشه، وتتولى تجسيده في بناء فني، يتولى تعرية مثالب هذا الواقع، ويكشف عن مساويء قبحه وفساده، فيدفعنا إلى المزيد من الوعي به، والتمرد على كل ما فيه من فساد سياسي، وتدهور اجتماعي، وتطرف ديني، وتأزم اقتصادي، واختلال قيم، ولكن بما لا يدفعنا إلى الهروب من هذا الواقع، بل مواجهته بالوعي، ومقاومته بالقيم التي لا يزال هذا الواقع يتخلى عنها.

* كاتب وناقد مصري، صدر له «طه حسين: تجديد ذكرى عميد الأدب العربي»، و«سيرة الضمير المصري: معالم في تاريخ الفكر المصري الحديث».

سنان أنطون

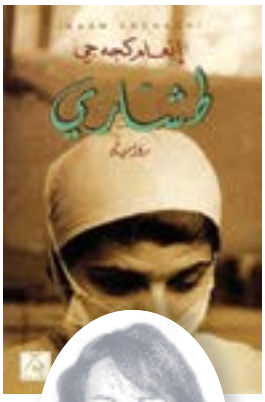

إنعام كجه جي

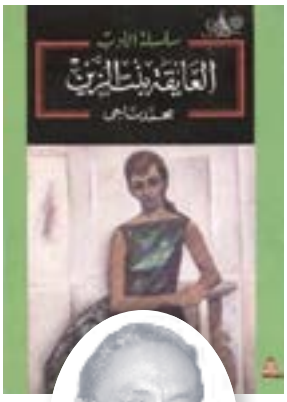

محمد ناجي

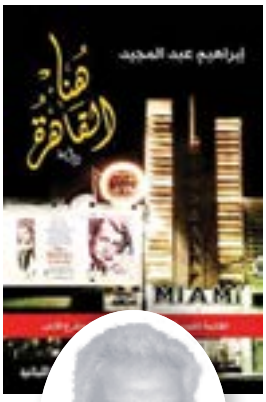

إبراهيم عبد المجيد

••• الرواية كالحياة تمامًا، ليست سوى تجربة أو امتحان لكي نختار، والشخوص الحقيقية الأصيلة المرسومة ببراعة وإحكام تمارس فعل الاختيار بدرجة أو بأخرى، ورواية «فهرس» للروائي العراقي **سنان أنطون** واحدة من الروايات التي عالجت مأساة الحرب وأهوالها وآثارها المدمرة على كل شيء ليس الإنسان فقط، بل الحيوان والنبات والحجر والجماد أيضًا!

بعد غياب لأكثر من عشر سنوات في الولايات المتحدة، يزور السارد «نمير» العراق مترجمًا لزوجين يصوران فيلمًا وثائقيًّا. يلتقي بودود الذي يُعد لأرشيف أو «فهرس» لخسائر الحرب من الحيوانات والنباتات والجماد وكل ما اندثر من غير الجنود وعتادهم، مستندًا إلى تاريخ شفوي ورصد خاص به للأحداث والمصادر الإخبارية.

«فهرس» ليست رواية عما تفعله الحرب بنا وفينا فحسب، ولا هي فقط ترجمة لمعاناة أهل العراق الذين تحولوا إلى فريسة مستباحة بين ديكتاتورية مجنونة وفوضى عارمة، ولكن المعنى الأعمق لهذه الرواية الذكية عن صراع الإنسان مع غربته ووجوده وزمنه القاهر، عن غربة خارج الوطن، واغتراب في داخله، عن زمن لا يتوقف ليسجل أو ليحفظ، ولكن الإنسان ينتصر في النهاية بالكتابة التي تحفظ الذاكرة، ينتصر لأنه ينقل إلى غيره خبرة الألم والبهجة، ولأنه يستطيع أن ينطق بلسانه، وأن يُنطِق الجماد أيضًا.

ولا تبعد رواية العراقية المغتربة **إنعام كجه جي** «طشّاري» عن هذا السياق المأساوي للحرب التي عاشها العراق سنوات طويلة. قبل عقود قليلة كنا نتحدث عن رواية «التغريبة الفلسطينية» بعد النكبة والنكسة، ثم ظهرت رواية «التغريبة اللبنانية» بنت الحرب الأهلية الضروس التي استمرت 15 عامًا، واستقرت مرارتها في الذاكرة اللبنانية حتى اليوم، وفي السنوات القليلة الأخيرة سنعثر على نماذج لرواية «التغريبة السورية»، أو «التغريبة العراقية» التي تعتبر «طشّاري» من تجلياتها الناضجة، إنها كلها في النهاية تنويعات «من/ على» رواية الحرب وأهوالها ومعاناتها التي ما زالت تلقي بظلالها الكئيبة وخرابها الشامل وآثارها المقيتة على شعوب المنطقة أغلبها.

تتتبع الرواية العراقيين الذين «تطشّروا» في البلاد أي تفرقوا مثل طلقة البندقية، هكذا تفسر أم عراقية شابة لابنها الصغير معنى الكلمة في مهجر العائلة الفرنسي، منذ بوابة العنوان نحن أمام استعارة مدهشة لا تجعل من البندقية ومن السلاح وسيلة للقتل المجاني الجسدي فحسب، ولكنها أيضًا وسيلة للقتل المعنوي بتغريب العراقي عن بلده العريق. اختارت إنعام ثانيًا أن تضاعف الإحساس بالأزمة، فجعلت أبطالها ينتمون إلى الأقلية العراقية المسيحية، التي كانت تعيش في تآلف وانسجام مع كل ألوان الطيف العراقي، قبل أن تنهال الحروب تباعًا ومن كل حدب وصوب وكأنها في سباق لا يهدأ ولا يتوقف عن حصد البشر، أصبح القتل على الهوية معتادًا، أما الأماكن والمدن فقد جرى تقسيمها بين الطوائف. نال المسيحيين بعضٌ من شواظ فوضى وتعصب، فُجرت بعض الكنائس، ووصلت تهديدات بالقتل والسبي، فالحالة المسيحية لا تقدم هنا سوى كنموذج لما يمكن أن يحدث لكل الطوائف، فيما لو استمر هذا الجنون الطشّاري.

3)

في مصر تأتي أعمال الروائي الراحل محمد ناجي لتمثل واحدة من أنضج المعالجات الروائية وأكثرها جمالًا وتماسكًا لفكرة «الحرب» التي يخوضها جنود الوطن المخلصون ليعودوا منها منتصرين ظافرين ويحصد ثمارها المباشرة غيرهم بلا حرب ولا مواجهة ولا ضحايا ولا دماء! الحرب كفعل يؤدي دون شك إلى حدوث تصدعات وتشوهات هائلة سواء داخل الأفراد الذين خاضوها أو في إطار الجماعة التي قدمت أبناءها وقودًا لهذه الحرب. وفي روايتيه البديعتين «العايقة بنت الزين»، و«لحن الصباح» خير تمثيل وتجسيد لما أقول.

وبالمناسبة، فإن هذه الفكرة من الأفكار المتكررة الملحة عند كُتَّاب جيل الستينيات على اختلاف تنوعاتهم السردية ومساراتهم الفنية؛ سواء في الرواية أو في السينما، وهي أن الذين انتصروا في الجبهة قد انهزموا في الحياة بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر، وأن الذي زرع غير الذي حصد، وأن الذين ربحوا ثمار المعركة من الانتهازيين وكذابي الزفة، نجد ذلك مثلًا في رواية «الحرب في بر مصر» **ليوسف القعيد** التي تحولت إلى فيلم بعنوان «المواطن مصري»، الشهيد ابن الفلاح والتكريم لابن العمدة.

ولكن الصورة التي اختارها **محمد ناجي** لحال المنتصر المهزوم لا نظير لها في قسوتها وفي قوتها وفي تأثيرها لأن المنتصرين يعودون من الحرب بعاهاتهم الجسدية، ثم يدفعون الثمن من روحهم أكثر من مرة، لا بل إنهم يتحولون إلى عفاريت وأشباح يطاردها الناس ليقتلوها، وبعض هؤلاء العائدين يلتصقون بالتراب التصاقًا (عباس الأكتع في «لحن الصباح»، وفي «العايقة بنت الزين»)، وكأنهم يتعذَّبون بنصرهم القصير مثل «سيزيف». تُرى ما الذي كانوا سيفعلونه معهم لو عادوا منهزمين لا منتصرين؟

تبدو رواية ناجي البديعة «**العايقة بنت الزين**» مثل مشربية صُنعت من كلمات ودموع وألحان من مقام الصبا تفتح على المحروسة بعد حرب انتصرت فيها، فلما جاء وقت اقتسام الثمار والغنائم، قفز «**كذابو الزفة**»، وجنرالات «**غطيان الكازوزة**»، ومانيكانات الشوارع، ومقاولو الهدم، وبهوات الأصفار، ووقف المنتصرون يعزفون لحن البيات بدون نوبة رجوع، وانتشروا يعتصمون بمرافئ الذاكرة، أو يلتقطون فتات الموائد، أو

يستعيدون أسطورة ميزان القلوب، ويعزفون بمزمار صامت، أو يبيعون أعوادهم وألسنتهم.

ينتهي القسم الأول من الرواية بالقتل الثاني للفاتح المهزوم، وينتهي القسم الثاني من الرواية باستسلام ناعسة بعد موت أيوب للزواج من سلطان القلعة الذي اشترى كل شيء، وبين القتل والاستسلام يتداعى وطن بأكمله ويترنح المهزومون في كل مكان، وكأنهم ضحايا معركة أشرس من حرب العبور، وكأنهم ركبوا أرجوحة لا تتوقف لحظة عن الدوران، يقول المقاول الذي سينفذ عملية هدم كل البيوت: البناء يمكن أن تهدمه طوبة. وكانت الطوبة في مقتل الفاتح ثم استسلام ناعسة.

أما «لحن الصباح» لمحمد ناجي، فواحدة من الروايات البديعة على كثافتها وقلة عدد صفحاتها (تقع في ما لا يزيد على 60 صفحة تقريبًا) التي عالجت ببراعة التشوهات النفسية والاجتماعية التي تنتج عن الحرب وعقبها؛ في روايته «لحن الصباح» تجد العلاقة متوترة، دون سبب، بين خطاط يمارس فنًّا جميلًا لكنه دون موقف، وانتهى به الأمر، أن ارتعشت يداه، فبحث عن صنعة أخرى، وما بين «مقاتل» ممتلئ بالحيوية، خرج من الجيش بعد أن شارك في انتصار، وينتظر تقدير الناس له على ذلك، فإذا به يفاجأ بأن عليه أن يتجرع كأس المرارة لآخره.

والقراءة المتأنية للنص تربط مصير الشخصيتين الأساسيتين بحدث الحرب، حيث فقد عباس الأكتع ساقيه وكتفه في حرب 1973، حيث «قصتها الشظايا حتى نهاية الفخذين»، وطيرت أيضًا راحة اليد اليسرى، «تركت له راحة اليد اليمنى بإصبعها الوسطى، وإليتين خشبيتين يزحف على جلدهما اليابس» وعمل بائعًا للسبح والأحجبة... ونوفل الخطاط السابق بيده اليمنى التي أصابها مرض الرعشة فلم يعد قادرًا على إبداع فنه القديم، ولذلك أخذ يبيع هو الآخر كتب الأدعية، والأحجبة والبخور والعنبر وجوزة الطيب، وينافس عباس، والحاجة ويكا صاحبة «سوبر ماركت العهد الجديد» ذات الشخصية القوية والحضور المؤثر.

فقد نوفل ابنه في آخر حروب المنطقة «حرب الخليج» الأخيرة التي ضاع معها ابنه في الكويت، ولا تكتفي الرواية بهذا الرباط التاريخي، ولكنها ترفده برباط معيشي، حينما تقدم الحاجة ويكا الإفطار لعباس قائلة له «لكَ ولهُ» فيفتح الكيس ويدعو نوفل للأكل معه، فالصراع على لقمة العيش ينطوي في الوقت نفسه على المشاركة الحميمة فيها.

ويظل العداء مستعرًا بين الاثنين، على الرغم من وقوعهما معًا تحت وطأة الظلم الاجتماعي والتهميش العنيف، فكان لا بد أن تنتهي الرواية في لحظة الصدام، فقتل أحدهما الآخر دون قصد. «لحن الصباح» تحكي عن مصر والمصريين عقب حرب العام 1973، ولقد انطلقت أيضًا إلى آفاق أوسع لتنقل أزمة الإنسان، ومعركته الخاصة في السيطرة على نفسه، ولكي ترصد بصورة مؤثرة، حرب الداخل الشرسة لتحقيق طمأنينة النفس، ولحسم بعض التناقضات المأساوية.

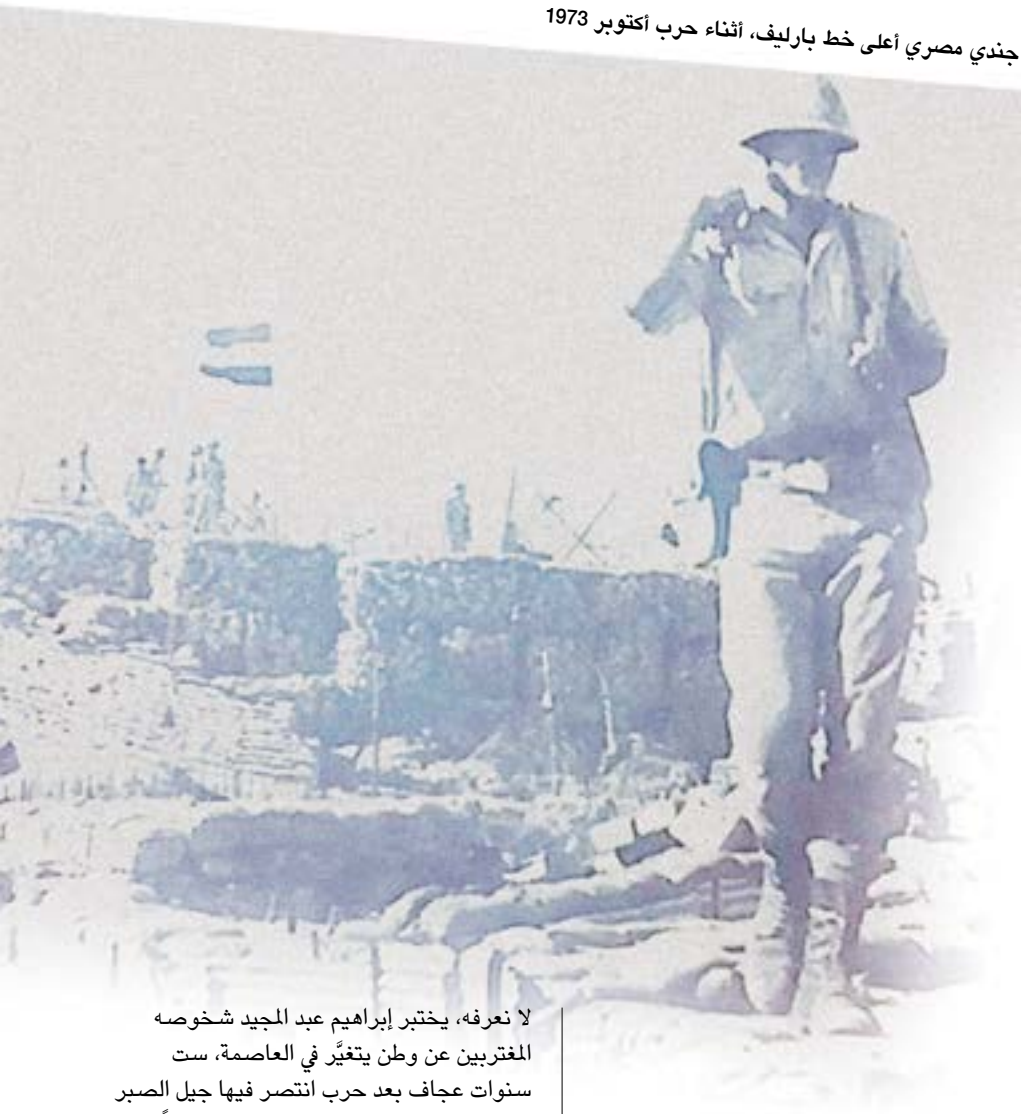

جندي مصري أعلى خط بارليف، أثناء حرب أكتوبر 1973

4)

«**هنا القاهرة**» **لإبراهيم عبد المجيد** التي صدرت طبعتها الأولى عن الدار المصرية اللبنانية واحدة من الروايات التي اشتغلت على لحظة التحول الفارقة التي حدثت في مصر بعد حرب العام 1973. وهي بهذا المعنى تستكمل شهادة عبد المجيد الروائية في ثلاثيته «لا أحد ينام في الإسكندرية»، و«طيور العنبر»، و«الإسكندرية في غيمة»

في «هنا القاهرة» حيث تتجسد الغربة في وطن لا نعرفه، يختبر إبراهيم عبد المجيد شخوصه المغتربين عن وطن يتغيَّر في العاصمة، ست سنوات عجاف بعد حرب انتصر فيها جيل الصبر والصمت، عاد من الجبهة فوجد نفسه مهمشًا وخارج الحياة حرفيًّا، «هنا القاهرة» تنويعة روائية أخرى على فكرة الحرب التي يخوضها النبلاء والشرفاء بالنار والدم ويحصد غيرهم ثمارها بحق أو بغير حق، وهي في عنوانها العريض حالة اغتراب في الداخل تقود إلى اغتراب فعلي، هروب جماعي لعقل مصر ومثقفيها إلى الخارج، وتستعيد الرواية ثانيًا زمن السبعينيات الصاخب، تحفظه من الضياع، وتحتفي بمناضليه قبل أن يأكلهم النسيان، الرحلة الطويلة تستمد أهميتها أيضًا من كونها وثيقة مدهشة عن غروب اليسار، وصعود اللصوص، وانهيار كل شيء جميل، التاريخ ينقل الوقائع من السطح، مجرد أحداث كبيرة لا أثر فيها للناس العاديين، ولكن الرواية وحدها، والروائي فقط، هو الذي ينقل لك الأحداث والتحولات من العمق، من خلال عيون وقلوب وأجساد تشعر وتتألم لأنها عرفت وتثقفت وحلمت ■

دينا أبو الفتوح*

تاريخيًّا، وظف فنانون أدوات مختلفة للتعاطي مع الحرب، بالدعم أو الإدانة. صاحب الفن الحرب، وكان أداة للمقاومة أو التوعية، فنراه يوثق آثار الحرب، ويعطي صوتًا لمن عانوا ويلاتها، وفي أحيان عدة كانت الذاكرة الفنية ضحية متعمدة للحروب.

من تمجيد المنتصر إلى رصد المعاناة

الذاكرة الفنية شاهدة على التحول

تحفظ لنا آثار العصور القديمة، من جداريات ومنحوتات، الذاكرة الفنية للحرب، وتشير بوضوح إلى الهدف التوثيقي للفن التشكيلي. في لوحة الحرب والسلم السومرية (Standard of Ur)، تُصور الحرب كجانب من جوانب الحياة. في هذه القطعة الأثرية العظيمة، والغامضة، وعن طريق تشكيلات فسيفساء متقنة تتجاور الحرب مع السلام. إلى الغرب من العراق، كانت مصر، وفيها المنحوتات الشهيرة التي تصف بطولات رمسيس الثاني في حربه ضد الحيثيين نحو العام 1274 قبل الميلاد. كان هذا النمط من المنحوتات، أي ذلك الذي يقدم رواية واحدة حول الحرب: إنها معركة ينتصر فيها القائد أو الملك، هو النمط السائد تقريبًا طيلة قرون: الفن لتمجيد الملك المنتصر وتخليد لاسمه. ربما يعود السبب، في تركيز هذا الفن على القادة المنتصرين، هو أن أغلب هذه الأعمال كانت مدفوعة الأجر من قبل الأطراف المنتصرة أو من قبل رجال أو نساء الدولة لتخليد تاريخ ما من انتصارات الأسر الحاكمة.

استمر هذا النمط مهيمنًا حتى العصور الوسطى، وهي عصور شهدت طفرة فنية كبرى في موضوعاتها، لكنها لم تتجاوز التقليد القديم في تصوير الحرب في كونها نزاعًا له طرف منتصر وطرف مهزوم مسحوق. في هذه الفترات، كان فن الرسم أو النحت مدعومًا من سلطة حاكمة

في أعلى لوحة «استسلام بريدا». 1634، للفنان الإسباني دييغو فيلاثكيث وفي أسفل لوحة «لوحة الحرب والسلم» السومرية. وفي الصفحة اليسار لوحة «نابليون عابرًا جبال الألب»، 1801، للفنان الفرنسي جاك لوي دافيد.

كان الحكام ينفقون على الفن لاستخدامه كأداة لتوثيق تاريخهم أو لنشر صورة مرغوبة عن الحرب لدى البسطاء

سياسية أو دينية، من النبلاء أو من رجال الدين، ونتيجة لذلك، تشكلت ذاكرة فنية محددة، فيها تصور عن الحرب أنها تنفيذ لرؤية السلطة عن كيفية توثيق حروبها أو كيفية نشر صور انتصاراتها.

بروباجندا حربية

أغلب الفن البصري المتخذ من الحرب موضوعًا له آنذاك، كان معنيًّا إما بتصوير بطولي للقادة أو الملوك في مقابل تصوير ضعف وخسة الأعداء. وكانت لذلك وظيفة مباشرة في بعض الأحيان في دعم قادة هذه الحروب وإقناع العامة بالانضمام إلى صفوف القوات الشجاعة المقاتلة. فنجد الفنان الإسباني **ديبغو فيلاثكيث** (DiegoVelázquez) يختار لحظة استسلام الجيش الهولندي وتسليم مفتاح مدينة **بريدا** موضوعًا للوحته التي تحمل نفس الاسم «**استسلام بريدا**» (La rendición de Breda) كوسيلة لإظهار هشاشة الجيش الهولندي واضطرابه وانسحاقه أمام الجيش الإسباني.

هنا كان الفن يلعب دورًا أقرب إلى البروباغندا الحربية. فمع انعدام وسائل توثيق الحدث كما في العصور التالية (كدور الصحافة والفوتوغرافيا في رصد أبعاد أخرى للحروب غير فكرة المنتصر والمهزوم)، كان الاعتماد الأساسي عن معرفة أخبار الحروب من القصص المروية واللوحات مرسومة أو منحوتة. ولذلك كان ينفق الحكام على الفن لاستخدامه كأداة لتوثيق تاريخهم أو لنشر صورة مرغوبة عن الحرب لدى البسطاء. لن تجد أفضل معبر عن هذا التوجه أكثر من اللوحات التي صورت الحملات الصليبية. كانت لديها مهمة وهي العمل على ربط الصورة الذهنية لدى العامة بين الحرب والدين في مزج يجعلها حروبًا مقدسة تدعمها الملائكة. هل هناك رسالة أكثر وضوحًا من رسمة رفائيل «**هدية الملاك للجندي الصليبي**» (Angel's Gift To Crusader) على جدار الفاتيكان لملاك يكافئ أحد الجنود بالمجوهرات في إشارة لمباركة الحروب وأيضًا لتحفيز الجنود لما قد يتلقونه من ثروة.

رؤى متصارعة

انتهت العصور الوسطى، واستقبلت أوروبا عصرًا جديدًا؛ عصر العلم والاكتشافات والمفاهيم الفلسفية حول مركزية الإنسان في الكون. ولكن تأثرًا بمبادئ الثورة الفرنسية، بدأ في الظهور مع بدايات القرن التاسع عشر بعض الفنانين الراغبين في تسليط الضوء على الجنود المحاربين، كأعمال الفرنسي **هوراس فيرنيه** (Horace Vernet) أو الإنجليزية **إليزابيث توموسون أو ليدي بتلر** (Elizabeth Thompson) صاحبة لوحة «**الفوج الثامن والعشرون في كواتر براس**» (The 28th Regiment at Quatre Bras) وهي عبارة عن لوحة زيتية على قماش من عام 1875، وفيها يصطف الجنود بمنتصف اللوحة في إشارة لا تخطئها عين لأهمية جموع الجنود وليس القادة.

كانت هذه رؤى تحاول مزاحمة التقليد التاريخي في أن الفن يخدم الطرف المنتصر في الحرب. فحتى مع انتهاء العصور الوسطى، استمر استخدام الفن للتوثيق مع تعظيم القائد وتصوير هزائم العدو. ففي أعقاب الثورة الفرنسية ومع توسع النزاعات المسلحة بفعل طموحات **نابليون بونابرت**، فيما يعرف بالحروب النابليونية (Napoleonic Wars)، انهمك رسامون في تصوير **نابليون**، البطل ورمز العسكرية والقيادة على ما نراه في اللوحات الخمس التي رسمها الفرنسي **جاك لوي دافيد** بعنوان «**نابليون عابرًا جبال الألب**»، أو في لوحة «**نابليون في ساحة معركة إيلاو**» (Napoléon on the Battlefield of Eylau) وفيها **نابليون** وسط اللوحة وهو ينظر من أعلى صهوة جواده إلى الجنود القتلى والجرحى، وصولًا إلى اللقطة التاريخية في لوحة «**بونابرت أمام أبو الهول**» للفرنسي **جان ليون جيروم**، وفيها يقف **نابليون** ممتطيًا جواده في مواجهة

* فنانة وباحثة مصرية مقيمة في هولندا

في الحروب الحديثة أصبح من الصعب على الكثير من الفنانين تمجيد المعارك والقادة في فنهم وأصبح التحول نحو قصص معاناة الأفراد والجنود هو الاختيار الأكثر إنسانية

لوحة «الثالث من مايو». 1814، للفنان الإسباني فرانشيسكو جويا

الأثر الخالد أبي الهول خلال الحملة الفرنسية على مصر (1798–1801).

الإنسانية تدخل على الخط

خلال القرن التاسع عشر، بدأت الذاكرة الفنية تتغير شيئًا فشيئًا. تغيرت الظروف العامة في القارة الأوروبية، ومعها تغيرت أبعاد العلاقة بين الفن والسلطة. من رحم هذه الصراعات، وُلدت مساحات ظهر من خلالها فنانون مستقلون عن السلطة، ومعها ظهرت أنواع من الفن التشكيلي المعنية بموضوعات أوسع من طلبات ورغبات الطبقات الأرستقراطية. كما أنه ومع انتشار الصحافة المطبوعة، أصبح هناك تناقل أسرع لأخبار الحرب وقصص المعاناة والآلام التي يعانيها الجنود. وترتب على ذلك ظهور نوع آخر من الفن المرتبط بالحرب، وهو نوع، يمكننا القول، أكثر إنسانية. فظهرت بعض الأعمال المعنية بتصوير الحرب كمعاناة بشرية وأصبح الفنانون يبحثون عن قصص الجانب الإنساني للحرب وتصوير مآسي وجرائم الحرب. في لوحة «**مذبحة خيوس**» (Chios massacre) للفرنسي **يوجين ديلاكروا** (Eugène Delacroix) تصوير لمشاهد مأساوية الحرب وأثرها المروع في النفس البشرية. في اللوحة، نحن أمام مجموعة من البشر تنطق وجوههم بألم عميق من الحرب، فيما الفضاء خلفهم يحمل دمارًا هائلًا.

من أشهر هذه الأعمال كذلك أعمال **جويا** Francisco de Goya y Lucientes عن الحرب الإسبانية بين العام 1810–1820، إذ أنتج 82 مطبوعة تحت عنوان «**سلسلة كوارث الحرب**» ركز فيها على إهدار كرامة المدنيين وتعذيبهم ووحشية القتل المتكررة في الحرب.

وخلال منتصف القرن التاسع عشر، وخصوصًا مع ظهور فن التصوير الفوتوغرافي أصبح فن الحرب أداة لإظهار بعض الحقائق عن طبيعة الحرب وحجم الدمار الناتج عنها لجميع الأطراف. فكان فن التصوير الفوتوغرافي هو بديل عن الرسم في توثيق المعارك والأسلحة.

كانت البداية مع لقطات فوتوغرافية لجنود في أوضاع الثبات ومواقع التمركز، نظرًا لصعوبة التقاط صور في أثناء الحركة. من أشهر هذه الأعمال الفوتوغرافية لقطات الجراح الإسكتلندي **جون ماكوش** (John McCosh) للحرب الأنجلو– سيخية الثانية بالهند، إذ إنه وثق لنا صور القادة والجنود والأسلحة المستخدمة وطبيعة أماكن الصراع قبل وبعد الاشتباكات.

ومع دخول القرن العشرين، وتطور الفوتوغرافيا وصغر حجم الكاميرات، أصبح من الممكن التقاط الصور أثناء الاشتباكات وتوثيق جميع جوانب الحرب. ولما كان للفوتوغرافيا مجال أوسع للطبع والنشر، أصبحت صور الحروب الواقعية أكثر انتشارًا وأكثر وقعًا في نفوس العامة. مع وضوح بشاعة حقيقة الحروب ومدى وحشيتها، ويمكن القول مع اشتداد ضراوة الحروب بدخول الأسلحة الحديثة والزيادة المهولة في أعداد الجنود، أصبح من الصعب على الكثير من الفنانين تمجيد المعارك والقادة في فنهم وأصبح التحول نحو قصص معاناة الأفراد والجنود هو الاختيار الأكثر إنسانية. فأثناء الحرب العالمية الأولى أرسلت الحكومة البريطانية بشكل رسمي بعض الفنانين لجبهاتها المحاربة لتصوير الحرب والكتابة عنها، للتوثيق وأيضًا لإنتاج مواد مصورة يمكن استخدامها للبروباغندا الحربية داخل أراضيها، وكان ذلك هو بداية استخدام مصطلح «الفن الحربي» بشكل رسمي. ولكن على خلاف المتوقع كان على أغلب الفنانين، الذين كان عليهم الوجود على أكثر جبهات أشد الحروب وحشية وضراوة في التاريخ الحديث، والمشاركة في المعاناة التي تقع على الجنود، فأصبح أغلب ما ينتجون من فن هو توثيق لتجاربهم الشخصية. لذا جاءت أغلب الأعمال الفنية عن الحرب مليئة بالمرارة كأعمال **بول ناش** (Paul Nash) والتي تصور مدى الدمار الذي أحدثته الحرب في صور أبوكالبسية قوية يظهر فيها أحيانًا الجنود مهلكين وخائفين في حالة من التيه والصدمة.

في إحدى رسائل **بول** لزوجته يقول «**لم أعد بعد فنانًا، بل رسولًا سيعيد الكلام من الرجال المقاتلين لأولئك الذين يريدون أن تستمر الحرب إلى الأبد... ولعلها تحرق أرواحهم الرديئة**».

الذاكرة الفنية معارضة

لم يكن تحرر الفن من السلطة السياسية هو تحول كامل للفنون المستقلة. فظل هناك اهتمام كبير بالفنون البصرية كأداة للبروباجندا، ولكن وجود الفن المستقل سمح بوجود فن معارض للحرب أيضًا. فعلى سبيل المثال استخدم الحزب الشيوعي السوفيتي العديد من الفنانين في نشر الأيديولوجية الجديدة للحزب الحاكم بعد الثورة البلشفية. فظهرت مدرسة من الواقعية الاشتراكية في الفنون البصرية (والتي سيستمر الحزب في دفعها كجزء من الحرب الثقافية أثناء فترة الحرب الباردة مقابل مدارس الفن التجريدي الأميركية). كما استخدمت ألمانيا النازية أيضًا فنون التصميم والرسم في نشر بوسترات داعمة للحرب أو في استقطاب الجنود. وعلى المنوال نفسه سارت دول عدة في مثل هذا التحشيد كالولايات المتحدة الأميركية.

ولكن على الجانب الآخر، ولما كان للحربين العالميتين أثر كبير من الدمار والإحباط، خرج من رحم هذه التجارب القاسية نوع جديد للفن الحربي، وهو فن نشط ضد الحرب، فخرج الفن عن قالبه التأملي المحايد لتكون له وظيفة مباشرة في التأثير على صانعي القرار ومواجهة قرارات الحرب. فكان من أشهر الفترات في اشتباك الفن في العمل السياسي ضد الحرب هي حركة «فن المظاهرات» أو الفن كنشاط سياسي، المصاحبة للمظاهرات ضد الحرب الفيتنامية في الولايات المتحدة. حيث تخطى الفن وظيفة التوثيق للحرب وإنما أصبح أداة لنشر الوعي أو الضغط ضد الحرب.

لوحة الربيع في الخنادق ، ريدج وود ، 1917، للفنان البريطاني بول ناش

الفن شافيًا من وطأة الحرب

من الأشكال الأخرى المعاصرة المشكلة لعلاقة الفن المعاصر بالحرب التي تحتفظ بها الذاكرة، هو استخدام الفن كأداة لعلاج اضطراب ما بعد الصدمة الناتج عن التعرض للعنف. العلاج الفني هو أحد الطرق الحديثة في علم النفس والتي ظهرت في منتصف القرن العشرين، وكان أحد مؤسسيها **أدريان هيل** (Adrian Hill)، هو واحد من فناني الحرب المشاركين بالحرب العالمية الأولى. تم إرسال **أدريان** بواسطة المتحف الحربي الملكي لتوثيق الحرب على الجبهة الغربية بفرنسا وبلجيكا وبعد عودته رفض المتحف عرض الكثير من أعماله مدعيًا أنها خارج ما طُلب منه تغطيته. كانت أعمال **أدريان** مثل العديد من فناني الحرب العالمية الأولى تصور مدى الدمار الذي خلفته الحرب ومدى ضآلة وضعف الجسد الإنساني مقابل آلات القتل الحديثة.

بعد عودته من الحرب وفي أثناء وجوده بأحد المستشفيات للعلاج من الربو، كان **أدريان** يستخدم الرسم كطريقة لتحسين حالته النفسية، ولاحظ أن لذلك تأثيرًا في حالته الجسدية أيضًا. في نفس الوقت طُلب منه الاشتراك ببرنامج جديد لتعليم الجنود العائدين من الحرب الرسم كأداة للتهدئة وتقبل العلاج. من خلال هذا البرنامج قابل **أدريان إدوارد آدمسن** واشتركا معًا في تأسيس فرع لعلم النفس قائم على العلاج من خلال الفن، والذي أصبح اليوم من المجالات المنتشرة في علم النفس العلاجي والمعترف بها عالميًا في علاج اضطراب ما بعد الصدمة.

لما كان للحربين العالميتين أثر كبير من الدمار والإحباط، خرج من رحم هذه التجارب القاسية نوع جديد للفن الحربي، وهو فن نشط ضد الحرب

أما من أكثر مدارس الفنون البصرية المرتبطة بالحرب الموجودة الآن فنجد ما يمكن أن يطلق عليه فن ما بعد الحرب. ظهر هذا النوع من منتصف القرن العشرين ويتشكل من محاولات الفنانين من أماكن النزاع في التصالح مع تاريخ الحرب. يمكن فهم ذلك من خلال أعمال الفنانين اللبنانيين بعد الحرب الأهلية في محاولة للالتئام والبحث عن علاقة المكان بتاريخ العنف والدمار. فنجد في أعمال **وليد رعد** المسماة «**مجموعة الأطلس**» مزجًا بين الواقع والخيال في مشروع متخيل لتوثيق الحرب يستطيع الفنان من خلاله التعامل مع تشوه الذكريات وعلاقتها بالذاكرة الجمعية للبنانيين بعد الحرب.

لم يكن لظهور أي من هذه المدارس الفنية لحظة تاريخية محددة تعيها الذاكرة. إنما تداخلت الأفكار والاتجاهات لتدفع بعضها البعض لإنتاج أفكار ورؤى تعبر عن صراع الإنسانية وذاكرتها في الفهم والتعبير عن الحرب. كما لم تظهر هذه الاتجاهات الفنية في تاريخ محدد، فهي لم تنته أبدًا، وتظل جميع هذه المدارس والاتجاهات حاضرة في الإنتاج الفني الحالي جنبًا إلى جنب ■

غرنيكا: Guernica

هي واحدة من أهم اللوحات المعبرة عن ذاكرة الحرب، وعن ويلاتها وتأثيرها الفظيع، إن لم تكن هى الأهم في هذا النطاق على مرِّ التاريخ، للفنان الأشهر بابلو بيكاسو، والتي رسمها بالألوان الزيتية فيما بين الأزرق والأسود والأبيض، وفي مساحة تزيد على الـ 27 مترًا مربعًا، لتعبر عن مأساة قرية «غرنيكا» بإقليم الباسك الإسباني التي قصفها الطيران الألماني النازي والإيطالي الفاشي تعضيدًا للقوميين الإسبان في حربهم ضد الجمهوريين عام 1937.

اللوحة التي طافت بلاد العالم والمعروضة في متحف مركز الملكة صوفيا الوطني للفنون بمدريد، إسبانيا صارت رمزًا كونيًّا تاريخيًّا للتعريف بأهوال الحروب بشكل عام، وتجسيدًا لضرورة وبديهية السلام.

ريشة فنانة عراقية شابة توثق مصاعب النزوح

دفتر الرسم أسلوب للمقاومة

تحمل مخيمات النزوح العراقي في طياتها مصاعب وآلامًا وتحديات، لكنها من ناحية أخرى، تعج بمواهب وآمال تحاول جاهدة الكشف عن نفسها وإيصال صوتها للعالم. في مخيم بشمالي العراق، قابلنا موهبة عراقية شابة هي الفتاة زهراء التي لم تمنعها حياة النزوح وقسوتها من ممارسة هوايتها في الرسم.

أفين ياسين*

اسمها زهراء، 19 عامًا، نازحة من العاصمة العراقية **بغداد**. قضت معظم عمرها في النزوح. فقد فرت هي وأسرتها من **بغداد** قبل عشر سنوات. التحقت بمدرسة ابتدائية في **جوارقورنة** التابعة لقضاء **رانية** في إقليم كوردستان، لكنها توقفت عند الصف الرابع الابتدائي، إذ حالت الظروف الاقتصادية لأسرتها بينها وبين استكمال تعليمها.

في بيتها، في ناحية **چوارقورنة**، التي تبعد مسافة 90 كيلومترًا من أربيل تقطن زهراء مع عائلتها المكونة من تسعة أفراد. يبلغ عدد سكان الناحية نحو 50 ألفًا، أغلبهم من الأكراد. فبعد سلسلة الأحداث العنيفة التي نكبت **بغداد** منذ العام 2003، نزح إليها كثير من العراقيين إضافة إلى لاجئين من سورية وإيران.

تشتهر المدينة بمناظرها الطبيعية الجميلة كونها تطل على بحيرة **دوكان** الواقعة على نهر **الزاب** الصغير الذي يأتي إلى الإقليم من شمال غربي إيران. الزراعة والصيد وتربية المواشي هي أهم سبل العيش في الإقليم.

لزهراء شقيقان وخمس شقيقات، اثنتان منهن متزوجتان، فيما ترملت ثالثتهن. الأب مريض لا يقوى على العمل. لذا يحاول الإخوة العمل وتوفير قوت يومهم. الأخ الأكبر **علي** يكسب رزقه من العمل في البناء بأجر زهيد، فيما يبيع الأخ الأصغر **حسن** الآيس كريم الذي تحضره أمه على عربة ذات ثلاث عجلات.

تقول زهراء إن والدها كان يعمل ويعيل الأسرة لكنه توقف عن العمل بسبب المرض. وتضيف «**لا يوجد هناك ما يشغلنا. نضطر إلى البقاء في المنزل في أغلب الأحيان ولا نخرج منه. ما يشغلني في أوقات فراغي هو هوايتي الرسم**».

تتمنى **زهراء** العودة إلى مقاعد الدراسة. لكن للأسف تواجه بعقبة السن. يخبرونها أن عمرها «**تجاوز الحد المسموح به**». «تعرضنا لظروف اقتصادية وعائلية.

ترسم زهراء منذ نعومة أظفارها. وقد تركت الرسم لفترة، لكنها عادت لتنمية موهبتها. شاركت في معارض الرسم التي نظمتها مدرستها وقت أن كانت طالبة. وكان هذا متنفسًا كبيرًا لها. الآن تواجه تحدي غياب أي اهتمام بالفن في المدينة التي تعيش فيها.

تقول **زهراء** «**أحب أنواع الرسم إلى قلبي هو الرسم التعبيري، ما لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات أعبر عنه بالرسم. أحاول تفريغ الطاقة السلبية عن طريق الرسم. أحب الأطفال أكثر من أي شيء آخر وأطفال أفريقيا على وجه الخصوص. أحب أن أرسمهم وأن أعبر عن المعاناة التي يعيشونها**».

هي تستعمل القلم الرصاص والفحم أكثر من غيرهما من أدوات الرسم في الوقت الحالي لغلو أسعار الألوان المائية والزيتية.

تصفحنا دفاتر الرسومات التي أنجزتها زهراء. تأملنا رسمة لوجه فتاة ووضعت يدًا على فمها وأخرى تعصب بها عينيها. تقول زهراء: «**هذه الصورة أحبها كثيرًا. كانت لديَّ خطط ولكن لم أتمكن من تنفيذها بعدما تركت الدراسة. رسمت هذه اللوحة للتعبير عن حالة اليأس التي كنت فيها**». وأضافت «**ما تعنيه اللوحة لا توجد أحلام لتتحقق، أنا محبوسة في البيت لا أستطيع الخروج ولا أستطيع أن أغير من حالتي**».

رسمة أخرى تكلمت عنها **زهراء**، لرجل حزين مسن يدخن سيجارة. تقول زهراء: «**هنا رسمت معاناتي، وحينها كنا نمر بظروف قاسية جدًّا ورسمت رجلًا مسنًّا تعبيرًا عما مر بوالدي من ظروف صعبة. أحب أن أرسم التعابير القلقة على وجه أفراد عائلتي**». «**ضاعت أحلامي بين الحروب**» هي عنوان رسمة أخرى، تمثل طفلًا بجناحي فراشة. «هي تعبر عن الأحلام، تقول، ورسمت السلاح في يديه كونه الواقع الذي يعيش فيه ولكن أحلامه هي أن يدرس وأن يعيش طفولته» ■

* مسؤولة الإعلام في بعثة اللجنة الدولية الفرعية في أربيل

اللوحة للفنانة المصرية راوية صادق، 1999

تخيل أننا هاجرنا إلى عالم لا يعرف الشمس

ندى ثاقب*

نجح سوري في عبور البحر الأبيض نحو أوروبا من بلده، الذي صار كـ«الأرض الخراب»، دون لمعان الصحف بخبر يحمل صورته غريقًا كالطفل الأيقونة «إيلان».

بدت هيئته متماسكة مشيرة إلى أنه لاجئ «ناجٍ» وهو يجلس في أتوبيس عام بالمدينة الغنية، لوكسومبورغ، لكن عينيه كانتا تائهتين، لا تستطيع أن تقرأ فيهما ضامنًا أكيدًا لنجاة روحه وقلبه..

استقر نظره على كرسيٍّ في الجانب المقابل تجلس عليه فتاة سمراء.. ترجمت ملامحها وشعرها الغامق المجعد من تحت الطاقية الصوف التي كانت ترتديها، فكرة لديه بأنها مثله قادمة من الشرق، لكن ثقتها وثباتها أبلغاه بأنها ليست وافدة جديدة مثله.

تشجَّع وسألها بحيرة: «هل ترى هذه المدينة الشمس أبدًا؟»

أي طقس عاشه في سورية جعل أكبر ما يفتقد في قلب مدينة أوروبية مترفة، شمسًا تدفئ غربته وتمسح عنه العيون التي استعارها في أثناء رحلته البحرية من سمكة صاحبته في الخروج إلى الشاطئ ميتة؟

كنا نهاية العام.. وكسا الثلج هامبورغ في ألمانيا بلون أبيض مائل للرمادي، لا تستطيع رؤيته ناصعًا، لاختباء الشمس خلف الضباب.

خرجنا من مطعم مُدفأ «صناعيًّا» بعد غداء بصحبة عائلة ألمانية.. كنا منهمكين في استعادة المعاطف الثقيلة والقفازات وأغطية الرأس حين صدمتنا الأم الألمانية بصيحتها: «زونًا»، مشيرة إلى شعاع شمس اخترق زحام السُّحب.

* كاتبة ومصورة مصرية

حماستها تلك جعلت لنا نصيبًا في تمشية سريعة تحت شمسهم هذه، لعلنا نكتسب بعض فيتامين «د».

سخرية المشهد بدت فيَّ وأختي ونحن متذيلتَان صف التمشية.. نجرُّ أرجلنا الثقيلة من كثرة طبقات الملابس، متسائلتين: «هي فين الشمس دي؟!».

تلك الحادثة أوضحت لي بشكل عملي لأول مرة الفرق الكبير بين ضوء النهار وضوء الشمس، ووضعتني أمام أسئلة لا تنتهي.. كم مرة لمست أشعة الشمس جِلد هذه المرأة طوال خمسين سنة عاشتها؟ وكم مرة استمتعَت بنهارٍ حقيقي لا ظلمة فيه؟ وكم مرة اضطرت إلى أخذ جرعات فيتامين كيميائية تعويضًا عن غياب الشمس؟

3

كثير من مهندسي العمارة يرسمون تصميمات المطابخ والحمَّامات على المناور، لتستحوذ غرف النوم والمعيشة على الشبابيك التي ترى الشمس لنفسها.

نشأتُ في بيت بالطابق الثامن، ترتيبه قبل الأخير في المبنى.. شباك مطبخه كان كما جرت العادة على «مَنْور»، لكنه كان «باصص على السما».

تلك الطاقة المفتوحة على اللا محدود رسمت للمطبخ روحًا صافية، ثم أصبحت الشمس بالعِشرة طوال أول عشرين سنة تقريبًا من عمري شريكًا أصليًّا لتفاصيل حياتي في المطبخ:

أكلات شهية تتذوق فيها طعم شمس الخريف الممتعة، وأخرى محروقة كشمس أغسطس القاسية.. فضفضات سرية جمعتني طويلًا بلمعان عينَي أمي، التي اختلط في مائها البُنِّي نور الشمس مع حرارة أسرارنا المشتركة.. مناجاة روحية حملتها أشعة الشمس بيني وبين السماء في مهمات غسل المواعين (الأطباق).

لم أزل أرى حُفرًا في ذاكرتي لصور انعكاسات الشمس من أسطح السكاكين والأواني على جلدي.. وقعتُ في غرام المطابخ، التي ترى الشمس.

ظللت طوال تنقلاتي السكنية مشغولة بموقع شباك المطبخ من الشمس قبل أي شيء.. حتى إنني أسكن الآن بيتًا ليس بداخله مناور أصلًا، ومطبخي مفتوح على شرفة صغيرة ترى حديقة بشمسها.

4

درسنا في علوم المرحلة الابتدائية أن الشمس مركز المجرة، تدور الأرض وباقي الكواكب حولها..

كانت مجرد معلومة لدلْقها في ورقة امتحان تنقلني إلى المرحلة الإعدادية.. معلومة لأكبر بها سنة أو سنتين بفعل الشمس.. لكنني أسترجعها الآن ويتجدد اكتشافي لهذا الكائن الضخم، الذي كنت أظنه يتحكم في نجاحي الدراسي فقط، بل اتضح أنه يتحكم في عالم أكبر..

هي بوصلة الحياة.. تتوه الأرض – ومَن عليها – إذا فقدت مسار دورانها حول وجهها البرتقالي.. إنها دليل الوجود واتزانه.. إذا قست على قطبي الأرض كان طوفان نوح جديد، وإذا حرمتنا دفئها هلكنا جامدين متجمِّدين.

وجه آخر للشمس بدا في أول درس تعلمته في مشوار التصوير بكلية الفنون التطبيقية: التصوير هو الرسم بالنور.. و«الشمس» هي المصدر الأصلي لكل ضوء.

تحت هذا الدرس تفرعت مناهج التصوير، التي تتخذ الشمس مصدرًا للإلهام.. كالتصوير بطريقة «السيلويت» مثلًا، حين تضع الشمس في خلفية الشيء المصوَّر، واستخدام عواكس ومرايا للتحكم في زوايا أشعة الشمس، وخلق شكل جديد للشارع نفسه إذا صوَّرته في ساعتين مختلفتين، أي حسب مكان وجود قرص الشمس في السماء، ورسم صورة بظلال الشمس كبطل أساسي للتكوين، وغيرها من دروس لا تنتهي كنارها ونورها.

وضعتُ سحر كل هذه القواعد الغنية لاستغلال نور الشمس وظلها في كفة، وعندما قابلتُ صورة الإبل الأيقونية للمصور الأمريكي «جورج شتاينمتس» وضعتُها في كفة أخرى.. صورة جوية التقطها «شتاينمتس» عام 2005 من طائرة شراعية لقافلة جِمال تسير في صحراء بسلطنة عُمان..

ستأخذ وقتًا عندما ترى الصورة لتستوعب أن شكل الجمال باللون الأسود ما هو إلا ظلالها، وبالتدقيق سترى بقعة صغيرة فاتحة اللون بجانب كل ظل هي أجسام الجمال الحقيقية.

ربما لم تكن تلك فقط براعَة من المصور، الذي امتلك الإمكانات المناسبة لتجميد اللحظة، ولا من الجِمال التي اتخذت وضعًا مراوغًا بلا خطة مسبقة.. ربما كان الأمر فقطَ استثمارًا معقولًا لثروة الشمس التي تُتحفنا بالنوادر كلما أرادت.. تمامًا مثلما أهدتني بعد أكثر من عشر سنوات من صورة «شتاينمتس» لحظة كنت أستجم فيها على ضفة نيل أسوان/مصر وقت الغروب، حين وجدت الشمس قد خلقت على الضفة الأخرى خيالاتٍ لأناس يترحلقون على الرمال.. رفعتُ الكاميرا دون تغيير جلستي، التقطت الصورة وبتقريبها اكتشفت تفاصيل لم أكن أراها بعيني المجردة، ولم تكن لتُخلق في ساعة أخرى من النهار.. رسومات دقيقة لحبَّات رمال ونقاط صغيرة مبهمة لأجسام من صنعوا الظلال وهم يسبحون كالشمس فوق الجبل الرملي.

5

ربما نقضي، نحن مصورو الشرق المشمس، سنوات تجوال طويلة بالكاميرا في الشارع، نتخيل فيها أن تصوير مشهد الغروب مثلًا «سذاجة فنية».. فقد رصدت آلاف الصور عبر الأزمنة البحر يبتلع دائرة شمس بها مئات الدرجات للون الأحمر..

فماذا لو تخيلنا أننا هاجرنا غدًا إلى عالم لا يعرف الشمس؟

ربما وقتها سنخطط لتخزين كميات كبيرة من مشاهد الغروب في كروت إلكترونية مضغوطة تُعينُنا على غربتنا، لئلا نكون كسُوريٍّ عبر البحر دون شمسه.

كم أتمنى أن نسرق بضع دقائق يومية ننظر فيها إلى السماء ونمتن.. ننعم بحرارة الشمس تخترق بشرتنا لتجدد ميلادها.. نلتقط ما استطعنا من صور، تخلقها بنورها وظله، سواء بكاميرا أو بعيوننا المجردة■

الكتاب الذي يحكي عنِّي

فاتن خليل*

«الكتاب الذي يحكي عني» هو جزء من برنامج «الطيور المحلِّقة» الذي أطلقه الصليب الأحمر السويدي في العام 2010 من أجل تلبية احتياجات الأطفال المصابين باضطرابات الصحة النفسية أو المعرضين لخطر الإصابة بها بسبب الحرب أو التعذيب أو الهجرة القسرية.

صدرت حديثًا النسختان العربيتان من «الكتاب الذي يحكي عني»، والدليل الشارح له. ويضم الكتيب الأول الذي صدرت نسخته الإنجليزية في تشرين الأول/أكتوبر من العام الماضي العديد من أنشطة التعبير الإبداعي التي من شأنها مساعدة الممارسين أو المرشدين على الحد من الضائقة النفسية لدى الأطفال، فيما يشرح الكتاب الثاني كيفية استخدامه. ويشكل هذا الكتاب جزءًا من المبادئ التوجيهية التقنية والإطار العام بشأن أدوات الصحة النفسية والدعم النفسي والاجتماعي، التي أعدتها اللجنة الدولية والتي تستند إلى خبرة المنظمة الواسعة في الاستجابة للاحتياجات المتنوعة في مجال الصحة النفسية والدعم النفسي والاجتماعي في مشهد إنساني دائم التغيُّر.

الأطفال الذين يواجهون الحرب أو التعذيب أو الهجرة القسرية بشكل مباشر، أو غير مباشر ، معرضون بصفة خاصة للإصابة باضطرابات الصحة النفسية، مثل اضطرابات ما بعد الصدمة، أو الصدمات الثانوية الناجمة عن التجارب المؤلمة التي عاشوها في بيئتهم الأوسع نطاقًا. ويشكل الأطفال الذين انفصلوا عن عائلاتهم فئة شديدة الاستضعاف وتتطلب اهتمامًا خاصًّا. وفي غياب الحماية والرعاية اللتين توفرهما عائلاتهم، نادرًا ما تُسمع أصواتهم في وقت هم في أمس الحاجة إلى ذلك، مما يجعلهم أكثر عرضة لخطر الجوع والمرض والعنف والتجنيد العسكري والاستغلال والاعتداء الجنسي.

ويستخدم «الكتاب الذي يحكي عني» أنشطة إبداعية من أجل مقاربة حياة الطفل من الداخل، ويوفر للطفل منبرًا للتعبير عن مشاعره بطريقته الخاصة. ويمكن أن يُستخدم هذا الكتاب ككتاب تمارين للأطفال؛ إذ تحتوي كل صفحة على نشاط، وخلال الجلسات، يدوِّن الأطفال في الكتاب ذكرياتهم ومشاعرهم وأحلامهم. ويمكن أيضًا أن يُستخدم الكتاب بشكل جزئي، وذلك باختيار الميسِّر الأنشطة الأوثق صلة من غيرها. ويُوصى باستخدام مجموعة الأدوات هذه من أجل مجموعات تتكون من 10 إلى 15 طفلًا تتراوح أعمارهم بين 4 و10 سنوات. وينبغي أن يتلقى الميسرون تدريبًا على الدعم النفسي الأساسي.

ويوظف الكتاب وسائل التعبير الإبداعي، مثل الرسم، من أجل مساعدة الممارسين أو المرشدين على الحد من الضائقة النفسية لدى الأطفال، بينما يشرح الدليل كيفية استخدامه، وقد صيغ بما يتماشى مع نهج اللجنة الدولية للصحة النفسية والدعم النفسي والاجتماعي أثناء النزاعات المسلحة وأعمال العنف الأخرى وبعدها. وهو يتألف من سبعة أنشطة هي نشاطات:

من أنا؟ والغرض منه تحديد الوضع الحالي للطفل واحتياجاته وزيادة تحفيزه على حضور الجلسات المقبلة.

نشاط الأصدقاء وهو يمنح الأطفال فكرة عن مكانتهم في سياق أوسع نطاقًا وما الذي يوفر لهم إحساسًا بالانتماء والهوية.

نشاط عائلتي يهدف للعمل على الشبكة الاجتماعية للطفل وصموده من خلال التركيز على الأشخاص المهمين والمؤثرين في حياته.

نشاط تقدير الذات يعمل مع الأطفال على تعزيز تقدير الذات والثقة بالنفس من خلال إبراز مواردهم.

نشاط المشاعر والغرض منه تصنيف تجارب عاطفية مختلفة في فئات واسترعاء الانتباه إليها والتعبير عنها بالكلمات، وزيادة فهم الطفل للعلاقة بين الأفكار والمشاعر وحالة الجسم والسلوك.

نشاط مستقبلي يعطي الطفل تصورًا لمكانته في سياق أوسع، ما يوفر له إحساسًا بالانتماء والهوية. وما الذي يريد الطفل تحقيقه؟ وما هي رغباته للغد والمستقبل البعيد؟

وتعرض الأنشطة في الكتاب على الشكل التالي:

النشاط 6: الذكريات

الغرض

إفساح المجال لنهج مفتوح لتجارب الطفل، وصياغته. وتعلُّم أن مشاعرنا ليست جيِّدة أو سيئة، بل هي إشارة تدل على تجاربنا.

المحتويات

مناقشات وتمارين عن ماهية الذكريات وكيف يمكننا التعامل معها. ولدينا جميعًا ذكريات جيِّدة ومؤلمة. وكيف يشعرون بعد ذلك؟ وكيف تؤثر ذكرياتنا على سلوكنا؟ وكيف يمكننا التعامل مع الذكريات المؤلمة؟ دعوا الأطفال يتشاركون الاقتراحات والخبرات.

ذكرى جميلة/ ذكرى مؤلمة

اطلبوا من الأطفال أن يلوِّنوا أو يرسموا أو يكتبوا ذكرى جيِّدة وذكرى مؤلمة.

الوقت: 30 إلى 40 دقيقة.

المواد: الكتاب الذي يحكي عني وأقلام ملونة ■

يمكنكم الحصول على نسخة إلكترونية من الدليل من خلال مسح هذا الكود

* مسؤولة إنتاج المطبوعات بـ «المركز الإقليمي للإعلام» باللجنة الدولية

غدامس:

تقديم المساعدات في «لؤلؤة الصحراء»

ICRC

قطع فريق اللجنة الدولية للصليب الأحمر في تموز/ يوليو الماضي رحلة طويلة على بعد ستمائة كيلومتر جنوب غرب العاصمة الليبية طرابلس متجهين إلى واحة مدينة غدامس القديمة المعروفة أيضًا باسم «لؤلؤة الصحراء» لتقييم الوضع الإنساني في المنطقة.

وأمضى الفريق بضعة أيام هناك في الاجتماع مع السلطات والاختلاط بالناس لمعرفة المزيد عن تأثير الصراع وجائحة كوفيد – 19 على حياتهم. وكونها منطقة نائية في بلد متضرر من النزاع، تأثرت الخدمات الأساسية في غدامس وأوال مثل المياه والصرف الصحي والرعاية الصحية، وهي مرافق تتطلب جميعها الاهتمام والاستثمار لإصلاحها وإعادة تأهيلها.

استُوطنت غدامس منذ عصور ما قبل التاريخ، لكن المباني المميزة للمدينة القديمة التي لا تزال قائمة حتى اليوم تعود إلى فترة الازدهار المرتبطة بالتجارة عبر الصحراء من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر. ومنذ أن استُوطنت للمرة الأولى منذ أكثر من ألفي عام، شهدت هذه الواحة الصغيرة رمال الزمن تعصف عبر جدرانها.

لم تتأثر غدامس وسكانها بشكل مباشر بجولة القتال الأخيرة في ليبيا، والتي استمرت من نيسان/أبريل 2019 إلى آب/أغسطس 2020. ومع ذلك، لا يزال هناك أكثر من 500 عائلة نازحة اضطروا إلى مغادرة غدامس نتيجة اقتتال قبلي سابق. تستقر هذه العائلات الآن في منطقة أوال القريبة.

مثل سكان الصحراء في جميع أنحاء العالم، قوبل فريقنا بضيافة أهل غدامس وأوال الدافئة.. بعد أسابيع قليلة من أول زيارة، عادت فرقنا لتوزيع المستلزمات المنزلية الأساسية على أكثر من 500 عائلة في أوال، ممن يأملون أن يتمكنوا يومًا ما من العودة إلى بلدتهم التاريخية غدامس.

جنيف:

شبح سوء التغذية يخيِّم على مناطق النزاعات المسلحة

اختتم دومينيك شتيلهارت، مدير العمليات باللجنة الدولية للصليب الأحمر، في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، زيارة ميدانية إلى الصومال، وفيها شاهد كيف يؤدي النزاع إلى تعطيل سلاسل الإمدادات وإغلاق الأسواق وقطع إمدادات المواد الغذائية والوقود والأدوية والسلع الأساسية.

وقال شتيلهارت: «رأيت بأم عينَي الآثار التي خلفها النزاع على العائلات. ففي رحلة إلى الصومال – البلد الذي عانى من مجاعة شديدة في عام 1992، عندما عملت هناك لأول مرة – رأيت مدى استمرار تفشي سوء التغذية في العديد من الأماكن. إنه لأمر مؤسف للغاية رؤية أطفال لا يجدون ما يسد رمقهم بينما يكافح الآباء والأمهات من أجل تأمين قوت يومهم».

وليس لدى العائلات في العديد من البلدان حول العالم ما يكفي من الطعام لسد رمق أطفالها، وهي حقيقة محزنة في العديد من المواقع التي نعمل فيها.

وتُظهر بيانات اللجنة الدولية أن أسعار المواد الغذائية قد ازدادت بأكثر من الضعف خلال العام الماضي في سورية والسودان، بينما ارتفعت بنسبة 50 في المائة تقريبًا في إثيوبيا واليمن، وجميعها بلدان متضررة من آثار العنف والنزاع المسلح.

ICRC

ويدفع اجتماع النقص الشديد في الغذاء ومحدودية الحصول على الرعاية الصحية الناس دفعًا إلى الدرب المؤدي إلى سوء التغذية الحاد، ولا سيما الأطفال الصغار والأمهات الحبليات والمرضعات. ولن تكون الوفيات التي تحدث جرَّاء سوء التغذية مصيرًا حتميًّا إذا ما اتُّخِذت إجراءات في الوقت المناسب.

وذكر كثيرون في مناطق متفرقة من إثيوبيا أنهم لا يستطيعون تحمل تكلفة أكثر من وجبة واحدة فقط في اليوم، هذا فضلًا عن تدني جودة هذه الوجبة. إذ ترتفع أسعار الغذاء في الوقت الذي انقطعت فيه سبل كسب عيش الكثيرين.

واستنفد النزاع الدائر في اليمن منذ أكثر من سبع سنوات أصول ملايين العائلات ومدخراتها في جميع أنحاء البلاد، ما أجبرها على تقليل استهلاكها من المواد الغذائية إلى حد كبير. ولا يستطيع أكثر من 16 مليون شخص إيجاد ما يكفيهم من الطعام أو تأمين قوتهم في اليمن اليوم، وهو رقم مفزع للغاية ومن الصعب استيعابه. في المقابل، يعاني أكثر من 3.2 مليون طفل وامرأة من سوء التغذية الحاد.

ويساعد احترام القانون الدولي الإنساني على كفالة الأمن الغذائي. إذ يحمي القانون الدولي الإنساني الأعيان التي لا غنى عنها لبقاء السكان المدنيين على قيد الحياة، بما في ذلك المحاصيل والماشية ومرافق المياه وإمداداتها. كما ينظم استخدام أسلحة معينة، مثل الألغام المضادة للأفراد، التي يمكن أن تعيق الإنتاج الزراعي.

ولم يعد النزاع وحده مدعاة للفرار، فإذا التفتنا إلى الأجزاء الشمالية من بوركينا فاسو، سنرى عائلات حملها البحث عن الطعام إلى الفرار من ديارها، ونخشى أن تواجه مناطق معينة في الشمال نقصًا حادًّا في الغذاء. بينما عرَّضت الفيضانات المدمرة في جنوب السودان هذا العام العائلات لخطر الجوع الشديد.

القدس:

ثلاثة تطبيقات تفوز في «هاكاثون العمل الإنساني 2021»

ICRC

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالشراكة مع مؤسسة ميناكتاليست فعاليات «هاكاثون العمل الإنساني 2021» في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي، وذلك بمشاركة أكثر من 50 متسابقًا من مختلف محافظات الضفة الغربية.

والهاكاثون هو فعالية جماعية تستهدف مبرمجي الكمبيوتر وغيرهم للاستفادة من التقنيات الحديثة وحثهم على تطوير البرمجيات.

وتأتي فعاليات «هاكاثون العمل الإنساني 2021» ضمن جهود اللجنة الدولية لدعم المواهب التقنية الشابّة وطلاب الجامعات وتشجيعهم على ابتكار أفكار جديدة وبناء نماذج أولية وإطلاق مشاريع مبتكرة يمكنها أن تلعب دورًا مهمًّا في إنقاذ حياة المتضررين من النزاع في الأراضي المحتلة.

وركّزت الفعالية على ثلاثة تحديات رئيسية تواجه عمل اللجنة الدولية في الأراضي المحتلة والمتمثلة بدعم الخدمات الطبية ومساعدة المدنيين والتجمعات المهمشة، بالإضافة إلى أهمية استخدام وسائل التواصل وتبادل المعلومات كآليات لتقديم المساعدة. كما تهدف الفعالية إلى إيجاد حلول تعتمد على التكنولوجيا واستخدام الواقع الافتراضي وإيجاد حلول من خلال إنشاء مبادرات مجتمعية تعالج أهم التحديات الإنسانية.

واعتبر محمد وهو أحد المشاركين في الهاكاثون أنها فرصة رائعة لطلاب الجامعات من شأنها أن تقدم لهم فرصًا لمناقشة قضايا العمل الإنساني وتحدياته ومحاولة إيجاد حلول لها بعيدًا عن ضغوطات الدراسة الروتينية.

أما بالنسبة للمشاركة آيات، فتقول: «إنها فرصة مهمة للتعرف على آلية عمل اللجنة الدولية وأسباب وجودها في مناطق النزاع، بالإضافة إلى آلية عملها مع جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني على وجه الخصوص». كما أكّدت آيات على أهمية عمل المتطوعين وضرورة تقديم الأفكار الإبداعية.

وتتطلع صباح إلى تطوير الأفكار التي عُرضت وترى أنه «من الضروري دعمها من اللجنة الدولية وتطبيقها على أرض الواقع، إذ إن هذه التحديات تعتبر عائقًا أمام العمل الإنساني في الأراضي المحتلة ومهمتنا كشباب وطلاب جامعيين أن نساهم في إيجاد حلول مبتكرة لها».

وفي ختام الفعالية، أعلنت لجنة التحكيم عن الفائزين في التحديات الثلاثة. عن فئة «استخدام وسائل التواصل وتبادل المعلومات»، فاز تطبيق Asiri الذي يهدف إلى الربط بين اللجنة الدولية وأهالي المعتقلين من خلال توفير خدمات مختلفة للأهالي عبر الإنترنت دون الحاجة إلى زيارة مكاتب اللجنة الدولية.

وفاز عن فئة «حماية الطواقم الطبية» تطبيق Side By side الذي يهدف إلى ربط اللجنة الدولية بالجمعيات الوطنية وتوفير حماية آنية لهم في حال وقوع انتهاكات.

أما عن فئة «مساعدة المدنيين والتجمعات المهمشة» فقد فاز حسب تقييم اللجنة تطبيق V–Care الذي يهدف إلى إبقاء التجمعات المهمشة على اتصال دائم مع طواقم اللجنة الدولية، كما سيوفر لهم معلومات عن الخدمات التي تقدمها اللجنة الدولية وكيفية الاستفادة من تلك الخدمات.

غزة:

حملة بأهمية التطعيم ضد وباء كوفيد–19

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في غزة حملة «التطعيم نحو مجتمع سليم» في تشرين الثاني/نوفمبر للتعريف بأهمية التطعيم ضد وباء كوفيد – 19 مع مجموعة من المزارعين الفلسطينيين في منطقة «جحر الديك» الحدودية، برفقة وزارة الصحة الفلسطينية/غزة – شركائنا في حملة.

هدفت الحملة إلى تسهيل وصول هؤلاء المزارعين لأخذ التطعيم.

بيروت:

اللجنة الدولية تطلق مجموعة التواصل حول الأشخاص المفقودين في لبنان

أطلقت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بالتعاون مع السَّفارة السويسريَّة في لبنان، مجموعة التواصل حول الأشخاص المفقودين في لبنان بهدف إيجاد مساحة مخصَّصة لمختلف أصحاب المصلحة المعنيين بملف المفقودين في لبنان – من أعضاء لجان الأهالي والمنظمات الدولية وغير الحكومية وأعضاء الهيئة الوطنية – لضمان التفاعل والتعاون في ما بينهم بشكل مستمرٍّ وواسع النطاق.

ويصادف العام 2021 ذكرى مرور ثلاث سنوات على إقرار البرلمان اللبناني للقانون 105 حول المفقودين والمخفيين قسرًا. وفي هذا الصَّدد، تحثُّ اللجنة الدولية جميع أصحاب المصلحة على السعي من أجل ضمان التفعيل السَّريع لعمل الهيئة الوطنية، إذ من الضروري أن تبدأ العائلات في الحصول على إجابات حول أماكن وجود أحبائها المفقودين أو المخفيين قسرًا.

واللجنة الدوليَّة على أتمِّ الاستعداد لتقديم الدعم الفني والاستشاري الضروريين في هذا المجال بهدف المساعدة في الكشف عن مصير آلاف الأشخاص الذين فُقدوا في لبنان منذ العام 1975.

جدير بالذكر أن اللجنة الدولية دشنت تجربةً تفاعليةً إلكترونية عبر الموقع www.alifepursuit.com

تسمح للمستخدمين بالغوص في غمار كفاح أفراد عائلات المفقودين والمخفيين قسرًا والاطِّلاع على الخيارات الصعبة التي تعيَّن عليهم القيام بها في رحلتهم بحثًا عن أحبائهم. «للعائلات الحق في المعرفة، وهذا حق يكرِّسه القانون الدولي الإنساني ومؤخَّرًا أيضًا القانون الوطني رقم 105»،

وقالت سيمون كاسابيانكا إيشليمان، رئيسة بعثة اللجنة الدولية في لبنان «اللجنة الدولية للصليب الأحمر ملتزمة بالتخفيف من معاناة العائلات ومساعدة جميع أصحاب المصلحة الذين يعملون من أجل الكشف عن مصير الأشخاص المفقودين والمخفيين قسرًا ودعمهم».

القاهرة:

دورة تدريبية للصحافيين حول القانون الدولي الإنساني

ICRC

عقدت اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بعثة القاهرة، دورة تدريبية للصحافيين حول القانون الدولي الإنساني على مدى يومين في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي بحضور عدد من الصحافيين العاملين في منصات إعلامية مختلفة.

اشتملت الورشة على عدد من المحاضرات حول الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وأنشطة اللجنة الدولية في مصر التي تعود إلى الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، بالإضافة إلى محاضرات حول القانون الدولي الإنساني وسلامة الصحفيين خلال النزاعات المسلحة.

تضمنت أيضًا الدورة محاضرة عن تغطية القضايا الإنسانية بشكل حيادي ومتوازن ومهني.

يأتي ذلك ضمن عمل اللجنة الدولية، كجزء من مهمتها الإنسانية، على تعزيز القانون الدولي الإنساني بين مختلف القطاعات، بما في ذلك الصحافة والإعلام.

وقالت نسمة نوَّار، المتحدثة باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر في القاهرة: «يلعب الصحافيون دورًا مهمًّا في دعم الجهود الإنسانية في الحفاظ على حياة الأشخاص وكراماتهم». وأشادت بثمار الدورة مؤكدة على كونها بداية سلسلة من الدورات التدريبية التي تستهدف الصحافيين.

النجف:

ورشة عمل مع الصحافيين حول تغطية القضايا الإنسانية

نظمت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بغداد في تشرين الثاني/ نوفمبر ورشة عمل مشتركة مع نقابة الصحفيين – فرع النجف لنشر الوعي حول القانون الدولي الإنساني والتغطية الصحافية الإنسانية.

وشمل التدريب تعريفًا بالمبادئ الأساسية للجنة الدولية للصليب الأحمر، وكذلك الأنشطة الطبية التي تضطلع بها اللجنة الدولية في العراق، على ما بينته ميريام عطا اللَّه، المسؤولة في قسم الإعلام في اللجنة الدولية ببغداد.

وقالت المتحدثة الرسمية باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر في العراق هبة عدنان «تتناول الورشة التعريف بأهمية الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر وأساسيات الإسعافات الأولية للصحفيين في الميدان فضلًا عن القوانين الدولية والوطنية والتغطية الإنسانية وقضية المفقودين ومناقشة التلوث الناجم عن الأسلحة».

وقال رئيس فرع النقابة إياد الجبوري «إن نقابة الصحفيين حريصة على مد جسور التعاون مع المنظمات الدولية والوطنية من أجل تطوير مهارات الصحفيين والاستفادة من التجارب التي تفيد الصحفيين خلال التغطية في الميادين الخطرة والنزاعات وقد اشترك في الورشة 25 صحفيًّا من مختلف المؤسسات الإعلامية».

بعثات اللجنة الدولية للصليب الأحمر في المنطقة

ICRC

الأراضي الفلسطينية المحتلة: شارع النبي شعيب رقم (14) منطقة الشيخ جراح، القدس 91202، صندوق بريد 20253
هاتف: 2 5917900 (972+) فاكس: 2 5917920 (972+)
البريد الإلكتروني: jer_jerusalem@icrc.org

الجزائر: 43 شارع المعز ابن باديس بوارسون سابقًا - الأبيار – الجزائر
صندوق بريد : 16606 الجزائر
هاتف : 03 43 92 21 / 73 40 92 21 (213+) فاكس: 18 43 92 21 (213+)
البريد الإلكتروني: alg_alger@icrc.org

الخرطوم: العمارات شارع رقم 33 – منزل رقم 16 – الامتداد الجديد
صندوق بريد 1831 – 11111 الخرطوم
هاتف: 65/476464 183 (249+) (خمس خطوط) فاكس: 183 467709 (249+)
البريد الإلكتروني: kha_khartoum@icrc.org
هاتف: 3310476/3339034 11 (963+) فاكس: 11 3310441 (963+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

الصومال: Denis Pritt Road، صندوق بريد: 73226 – 00200 نيروبي، كينيا
هاتف: 301 2719 (25420+) فاكس: 13731 27 (25420+)
البريد الإلكتروني: somalia@icrc.org

الرباط: 35 زنقة القلصدي (خلف مصحة ابن خلدون) ، أكدال 10090، الرباط
هاتف : 537750551 (212+) فاكس : 537651018 (212+)
البريد الإلكتروني: rab_rabat@cicr.org

القاهرة: 84 شارع 104 حدائق المعادي، 11431 القاهرة، مصر
هاتف: 41/25281540 2 (202+) فاكس: 25281566 (202+)
البريد الإلكتروني: cai_lecaire@icrc.org

الكويت: البعثة الإقليمية لدول مجلس التعاون الخليجي (تغطي أنشطتها: الكويت، السعودية، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين، سلطنة عمان) الجابرية، قطعة 8، شارع رقم 17، منزل رقم 4 صندوق بريد: 28078 – الصفاة 13141
هاتف: 53220612 / 53220622 / 53220982 (965+) فاكس: 25324598 (965+)
البريد الإلكتروني: kow_koweitcity@icrc.org

بغداد: الصالحية، حي السكك، محلة 220، زقاق40 دار 6 ص.ب 3317 العلوية بغداد– العراق
هاتف: 7/8126 443 770(0) (964+) 5/964614 7801(0) (964+)
البريد الإلكتروني: bagdad@icrc.org

بيروت: جان دارك 326، شارع صيداني، الحمرا، صندوق بريد 7188–11
هاتف: 739297/739298/739299 1 (961+)
البريد الإلكتروني: bey_beyrouth@icrc.org

تونس: بعثة إقليمية، (تغطي أنشطتها: تونس – موريتانيا – الصحراء الغربية) المندوبية الإقليمية بتونس نهج بحيرة كنستنس، رواق البحيرة عمارة أ، ضفاف البحيرة تونس 1053
هاتف: 960179/960154/960196 71 (216+) فاكس: 960156 71 (216+)
البريد الإلكتروني: tun_tunis@icrc.org

جوبا: شارع الوزارات العمارات، جوبا، جمهورية جنوب السودان
هاتف: 889 151 977 0 / 170 275 912 0 (211+)
البريد الإلكتروني: jub_juba@icrc.org

دمشق: أبو رمانة، ساحة الروضة، شارع مصر، صندوق بريد 3579
هاتف: 3310476/3339034 11 (963+) فاكس: 11 3310441 (963+)
البريد الإلكتروني: dam_damas@icrc.org

طرابلس: النوفلين - شارع ابراهيم الهوني 10,53,050 بالقرب مصحة الأخوة طرابلس - ليبيا
هاتف: 9332 340 21/9331 340 21 (2180+)
البريد الإلكتروني: tri_tripoli@icrc.org

طهران: طهران، إلهيه، شارع شهيد شريفي منش، زنقة آذر رقم 4، قرب مستشفى أختر.
الرمز البريدي: 1964715353
هاتف: 4–2122645821 (98+) فاكس: 2122600534 (98+)
البريد الإلكتروني: Teh_teheran@icrc.org

صنعاء: شارع بغداد، رقم 19، منزل رقم 20 صندوق بريد: 2267 صنعاء
هاتف: 4/467873 / 44 38 21 1 (967+) فاكس: 75 78 46 1 (967+)
البريد الإلكتروني: san_sanaa@icrc.org

عمّان: دير غبار، حي الديار، شارع يوسف أبو شحوت صندوق بريد 9058 عمان 11191
هاتف: 5921472/4604300 6 (962+) فاكس: 6 5921460 (962+)
البريد الإلكتروني: amm_amman@icrc.org

نواكشوط: الحي A، المنزل رقم ZRA 722، صندوق البريد 5110، نواكشوط، الجمهورية الإسلامية الموريتانية
هاتف: 45245810/45244738 (222+) فاكس: 45244697 (222+)
البريد الإلكتروني: nou_nouakchott@cicr.org

memories of the war vary greatly, their recollections diverse and complex. Novelist Fadela Melhak explores the importance of humanitarian action on Algerians' memories of war and Algerian–French relations. Next, novelist Amir Taj al-Sir draws a sombre portrait of Sudan, a country characterized by futile disputes that erupt between tribes and dissident factions. This is followed by a series of personal accounts by humanitarian professionals. Judge Omar Mekky blends the personal and the legal, and proposes a powerful slogan: "Even wars have limits." Memory of place is also examined by Ola al-Ojaily in a tour of the ancient city of Aleppo, which has defied destruction.

In addition to our focus on memories, several contributors discuss climate change following the recent UN conference in Glasgow and the role of social media in driving this issue forward.

As always, this edition contains articles on the links between IHL and sharia. Ahmed al-Dawoody and Sarah Gale present an approach based on the civic character of the natural environment according to IHL and sharia. They examine the similarities between both disciplines and the degree of compatibility between them. The heritage of jurisprudence in all its variety is brought to bear on efforts to support the environment during armed conflict.

This edition also features an interview with eminent Moroccan thinker Idriss Fasi Fihri, who discusses his views on war, peace, international law and Islam, particularly regarding the treatment of prisoners of war in the Islamic tradition.

«Al-Insani»

حماية الرعاية الصحية من العنف: قائمة مرجعية تشريعية

تقدم الوثيقة استعراضًا لبعض التحديات الرئيسية المتعلقة بحماية الرعاية الصحية أثناء النزاع المسلح وحالات الطوارئ الأخرى. وتهدف إلى تزويد الممارسين بنظرة عامة ودليل لوضع قواعد مناسبة تحد من وقوع حوادث العنف التي تستهدف الرعاية الصحية والتخفيف من تأثيرها.

صُممت هذه الوثيقة لتكون بمثابة أداة عملية لمساعدة الممارسين المعنيين على تقييم ما يلي: – ما إذا كان الإطار المعياري المحلي يتوافق مع الالتزامات الدولية وبعض التوصيات العملية الرئيسية المتعلقة بحماية تقديم الرعاية الصحية؛ – ما التدابير الوقائية أو التصحيحية المناسبة في الحالات التي تُحدد فيها ثغرات.

للحصول على هذه الوثيقة، زر هذا الرابط:

https://bit.ly/3nfw0BG

الابتكار في اللجنة الدولية

ما من تعريف موحد للابتكار. أما بالنسبة للجنة الدولية، فإنه يمثل وسيلة لفعل الأشياء بطريقة مختلفة وعلى نحوٍ أفضل - وينطوي على التحسين المستمر، والاستجابة للاحتياجات والسياقات المتطورة، والتنبؤ بالمستقبل والاستعداد له، ودعم التحولات المؤسسية.

في اللجنة الدولية، لا تنحصر الجهود الرامية إلى تحقيق الابتكار في فريق واحد بعينه. فخلافًا لذلك، تبذلها ضمن المؤسسة مختلف الوحدات والدوائر والبعثات التي تدفع إلى تجاوز حدود طرائق عملنا. من غزة إلى غوما، ومن وحدات الماء والإسكان إلى وحدة الأشخاص المحتجزين، تؤدي كل وحدة دورًا يقع على عاتقها.

وتُجرب ابتكارات اللجنة الدولية مجموعة من الحلول المختلفة – من تقنيات جديدة، إلى منتجات جرى تكييفها، إلى عمليات معاد تصميمها، إلى آليات جديدة للشراكة والتمويل – في مجالات برنامجية رئيسية. وتُنفذ بعض التحسينات على مراحل، في حين أن البعض الآخر يُرسي الأسس المتينة لجهود أكبر مشتركة بين مختلف الدوائر، مثل التحول الرقمي والبيانات، والتحول في مجال الطاقة، والصحة الرقمية، والواقع الافتراضي.

ويصف هذا المنشور النهج الحالي الذي تتبعه اللجنة الدولية في مجال الابتكار، ويقدم أمثلة ملموسة على مبادرات قائمة، وتوجه موظفي اللجنة الدولية بشأن كيفية الحصول على الدعم في مجال تطوير أفكارهم.

للحصول على هذه الوثيقة، زر هذا الرابط:

https://bit.ly/3I3uZVv

المبادئ التوجيهية بشأن التفاعل مع عائلات المهاجرين المفقودين

تعرض هذه الوثيقة مجموعة من المبادئ لتوجيه التفاعل بين العائلات ومجموعة واسعة من أصحاب المصلحة، بما في ذلك الدول وأجهزتها المختلفة، والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية، والأطراف الفاعلة في المجتمع المدني، مثل جمعيات عائلات المفقودين. وتفترض هذه المبادئ أنه يتعين أن تكون العائلات هي الأطراف الفاعلة الرئيسية في الجهود المبذولة لتلبية احتياجاتها. وفي حين تقع المسؤولية الأساسية للاستجابة لتلك الاحتياجات على عاتق الدول، يمكن للأطراف الأخرى أن تدعم جهودها. ويشمل ذلك كل العناصر المتعلقة بكيفية تفاعل أصحاب المصلحة مع العائلات ومشاركتها مشاركة أكثر فاعلية في عملية جمع وتحليل ونقل المعلومات التي تكشف مصير المهاجرين المفقودين وتحدد مكان وجودهم، وفي تلبية احتياجاتهم الأخرى. ويدخل في جوهر المبادئ الاعتراف للعائلات بالحاجة إلى معرفة مصير أقاربها المفقودين ومكان وجودهم، والتمتع بالحقوق ذات الصلة المنصوص عليها في فروع القانون الدولي واجبة التطبيق.

للحصول على هذه الوثيقة، زر هذا الرابط:

https://bit.ly/3rajwwv

استراتيجية الحصول على التعليم

تعرض هذه الاستراتيجية إلى جانب الإطار الخاص بالحصول على التعليم الأشمل تعريف اللجنة الدولية لمفهوم الحصول على التعليم وطريقة مقاربته، وتُحدِّد طموحاتها والتزاماتها إزاء هذه الخدمة العامة الأساسية. والغرض من الاستراتيجية هو دعم عمل اللجنة الدولية الرامي إلى ضمان تحسين إمكانيات حصول الأطفال والبالغين المتضررين من النزاعات المسلحة وحالات العنف الأخرى على التعليم. وتخلف هذه الرؤية الممتدة لخمس سنوات الاستراتيجية الأولى بشأن الحصول على التعليم للفترة 2018–2020.

للحصول على هذه الوثيقة، زر هذا الرابط:

https://bit.ly/3K49LbK

Contents

• **An inevitable climate catastrophe: Cautious optimism about the Glasgow Climate Pact,** by: al-Insani's editor
Experts still believe that our world is headed towards a climate catastrophe despite the limited success of the COP26 summit in Glasgow, Scotland. Reducing the use of coal as an energy source and supporting underdeveloped countries to address climate risk are two of the modest steps adopted at COP26.

• **Social media and climate change: Temporary momentum or a real impetus for behaviour change?** by: **Muhammed Allam,** Egyptian researcher in mass communication.
Climate change only recently became a matter of pressing concern for me personally when the figures and forecasts took the form of stories of human suffering in poor and underdeveloped regions.

• **Protecting the environment during armed conflict: IHL and Islamic law,** by: **Ahmed al-Dawoody,** ICRC legal adviser, **and Sarah Gale**, ICRC delegate.
Protecting the environment during armed conflict is attracting renewed attention in light of the ongoing climate and environment crisis. This is not a new phenomenon, however; it can be seen in the deliberations of Muslim jurists as far back as the seventh and eighth centuries. Common questions exist between current international humanitarian law (IHL) and these historical debates, including the basis on which the natural environment is protected and from which other legal elements stem.

• **Idriss Fassi Fihri: The principle of reciprocity in Islam does not extend to torture or to the mutilation of corpses,** interviewed by: **Ahmed Zaki Othman,** al-Insani's manging editor.
Eminent Moroccan professor of jurisprudence Idriss Fassi Fihri investigates fundamental legal Islamic issues and proposes new ways of understanding their significance in today's world. Over the years, he has crystallized original and advanced ideas in IHL and the protection of civilians during times of conflict. His book, The Concept of Peace in Islam, analyses Islamic jurisprudence in order to identify areas common to humanity as a whole. In this interview, he expounds his views on war and peace, international law and Islam, and the treatment of prisoners of war in Islam.

Issue File: Memory and war
• **When the fighting stops, wars are waged in the mind: The past, present and future of Algerian–French relations,** by: **Fadela Melhak,** Algerian judge, researcher and novelist.
Sadly, brutal and violent armed conflicts are a feature of recent history. They create complex memories in those who experience the violence and have lasting repercussions on post-conflict relationships. Post-independence Algerian–French relations are a case in point, and these are examined by Fadela Melhak in this article.

• **The ICRC as witness: Humanitarian landmarks in Algeria's War of Independence,** by: **Lynda Bouali,** ICRC communications officer, Algeria.
In July 2022, Algeria will mark the 60th anniversary of its liberation from French colonial rule. The fight for Algeria's independence lives on in the collective memory of Algerians and, as the anniversary approaches, we explore the ICRC's humanitarian action at the time.

• **Embers of war reignited: Conflict is seared in Sudan's memory as one war ends and another begins,** by: **Amir Taj al-Sir,** Sudanese writer and novelist.
Sudan remains a hotbed of conflict despite repeated calls for peace and numerous international conferences designed to unify the country. It is characterized by futile disputes that erupt between tribes and dissident factions. Sudan could be described as "warlike" or be forever stymied by those who want it to lurch from one conflict to another.

• **Living on in memory: Missing people in the Middle East,** by: **Basant Abdel Meguid,** ICRC IHL legal adviser, Middle East and North Africa.
People never forget their loved ones and strive to keep their memories alive. Neither the passage of time nor the rebuilding of lives and infrastructure will result in healing if the issue of missing people is not resolved. A lack of information about their fate can lead to deep rifts that may prevent full recovery once conflict has ended. Helping people know the fate of their loved ones is critical, not only for individuals but also for communities and their ability to heal and move forward.

• **Reuniting people: When empathy overrules selfishness,** by: **Rabab Samir,** ICRC Restoring Family Links officer, Kuwait.
With an ICRC career spanning a decade, most of which she has spent working to reunite people, Rabab Samir has witnessed the suffering people endure when separated from their families and loved ones, whether it be the result of natural disaster, armed conflict or economic crisis. In this article, she reflects on her experiences.

• **Remembering what protecting human dignity means: Humanitarian lawyers and the limits of war and law,** by: **Omar Mekky,** ICRC legal coordinator, Middle East and North Africa
"Even wars have limits." More than 15 years ago, this statement was uttered by an ICRC delegate in an IHL training session designed for top-flight public prosecutors in Egypt. I am not sure if the delegate was aware of the impact of these four simple words on his audience, but they undoubtedly changed my life.

• **From Yemen to Iraq to Syria: Adnan Hizam – the death of my colleague still haunts me,** an interview by Al-insani
In this series of interviews with ICRC field staff, we explore the nature of their work, the challenges they face and their experiences of humanitarian action. In this edition, we interview communications officer Adnan Hizam, who produces messages and stories for a public audience as part of his role.

• **A volunteer remembers: Life's contradictions on the Syrian front lines,** by: **Rammah Zawan,** former volunteer with the Syrian Arab Red Crescent
The first time I visited a Red Crescent office, my eyes fell upon a logo. It was a red crescent on a white background with seven accompanying words. "Humanity" was the first word I read.

• **Sabah Fakhry welcomes you to Aleppo: The memory of place,** by: **Ola al-Ojaily,** ICRC communications officer, Aleppo.
As you enter the ancient city of Aleppo through the Gate of Antioch, one of the city's five gates, you will probably hear the echoes of the famous Arab singer Sabah Fakhry.

• **From glorifying the victor to describing suffering: Art as a witness of change,** by: **Dina Abo al-Fotouh,** Egyptian artist and researcher
Throughout history, artists have employed different artistic devices to address the phenomenon of war, both to support it and to condemn it. Art has always had a relationship with war: as a means of resistance or to raise awareness, to document its impact or to represent those affected by its scourge. However, artistic memory has itself sometimes become a victim of war.

• **Representations of war: Memory, fictionalization and revival in the modern Arabic novel,** by: **Ehab al-Mallah,** Egyptian writer and critic.
Critics of the contemporary Arabic novel almost unanimously agree that talking about the Arabic novel and its treatment of war and defeat supposes or implicitly acknowledges that literature and art are both evolving phenomena that influence and are influenced by the surrounding environment. Such a hypothesis is an acknowledgement that the novel is a portrayal of human experience, not just sets of systems, structures and symbols.

• **Sketching as an act of resistance: An Iraqi artist documents the plight of the displaced,** by: **Avin Yassin**, ICRC communications officer, Erbil.
Life in an Iraqi displacement camp is tough, but talent and hope are abundant among the people who live there. Many want to make their mark on the world while drawing attention to their plight. Avin Yassin introduces Zahra, a talented young Iraqi who lives in a camp in northern Iraq. Her dire circumstances have not deterred her from pursuing her hobby of drawing.

• **Book Review: The Book About Me, by Faten Khalil,** ICRC regional production officer
The Book About Me is part of the Birds in Flight programme, which was started in 2010 by the Swedish Red Cross to address the needs of children who have developed or are at risk of developing mental health conditions as a result of war, torture or forced migration.

• **Without Retouches: Imagine we have migrated to a sunless world,** by: **Nada Thaqeb,** Egyptian writer and photographer
From around the world

• **Publications**

Editorial

Remembering war: Humanity can change the future

All wars create memories; some fuel the flames of future violence, others are the building blocks of a better tomorrow.

A memory is a record of war: perhaps one that was fought to defend an identity or to avenge past grievances, or one that was waged in the hope of a better future. Memories of war are never in short supply, and when war breaks out, there is always the risk that the memories of it will perpetuate future violence. However, this is only part of the picture. Memories of war may also be constructive and drive a desire for peace.

The opposite of remembering war is not necessarily forgetting or collective amnesia – it could be a memory of humanitarian action. Rarely acknowledged, remembering can focus on the individuals and communities who worked to alleviate the suffering of those who took no part in the fighting. It is these memories that inspire humane behaviour today.

More than 150 years have passed since A Memory of Solferino was published by Henry Dunant, the Swiss pioneer of humanitarian action, who died in 1910. The book – published three years after he witnessed the Battle of Solferino – records his memories of a war that haunted him. Dunant's record of suffering led to humanitarian organizations being established around the world to help people in distress and danger. Dunant's work also helped lay the foundations of international humanitarian law (IHL).

This edition of al-Insani explores the human experience of remembering war, beginning with the Algerian War of Independence. Algerians'

عدنان حزام/ اللجنة الدولية

شكل جديد

محل ملابس يُسمى New Look، يضفي لمسة من لون وأمل على مبنى متهدم في داريا بسورية.

في العام 2021، دخلت سوريا عامها الحادي عشر من النزاع – أكثر من عقد من الألم والخسارة والاضطراب في حياة الناس في جميع أنحاء البلاد. وعلى الرغم من الصدمة والحزن وضبابية المستقبل، يتسلح السوريون بالأمل، ويحاولون جاهدين إعادة بناء حياتهم.